سُومرســت مُـوم

فريق
متميزون
E-BOOK

رواية

كنتُ جاسوسًا

ترجمـة : حسين القباني

أقلام عربية
للنشر والتوزيع

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

كنت جاسوسًا

سُومرست مُوم
ترجمة: حسين القباني

عن الرواية..

لم تكن حوادث هذه الرواية من نسج الخيال، فبطلها المسمى فى الرواية "مستر شندن" لم يكن شخصية وهمية بل كان هو نفس مؤلف الرواية وكاتبها سومرست موم، فقد عمل سومرت موم في خدمة المخابرات الإنجليزية في أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم رأى أن يسجل فى هذه الرواية التى أسميناها "كنت جاسوسًا" واسمها بالإنجليزي The ashenden Brit- ish agent– الأسرار الغريبة المثيرة التى مرت به خلال عمله بالجاسوسية، وصور فى إبداع الكاتب الأديب ملاحظاته الدقيقة على النفوس البشرية فى تلك الظروف الدامية.وتبدو أمانة الرجل الأديب الفنان واضحة جلية فى اللوحات الصادقة التى سجل فيها موم على نفسه مواقف كان هو فيها مثال القسوة البالغة.

كذلك سجل فيها على بلاده وعلى مخابراتها عدم التورع عن أية وسيلة فى سبيل القضاء على محاولات الأحرار من رجال مستعمراتها، أولئك الذين وقفوا فى وجه الإمبراطورية العتيقة الواهنه، وانتهزوا فرصة الحرب للقضاء على سلطانها الغاشم فى بلادهم، والظفر باستقلال تلك البلاد.

وقد استطاع سومرست موم ببراعته الروائية أن يسجل تلك الأحداث فى أسلوب قصصي ممتع شائق يأخذ بمجامع القلوب، ويثير الرغبه الجامحة لمتابعة المطالعة حتى النهاية. إنها تحفة جديدة لروائي عالمي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مؤلف الرواية

وليم سومرست موم، الكاتب الروائي المعاصر، اشتهر بكثرة إنتاجه، وانتشار مؤلفاته التي لا يقل عددها عن ستين مؤلفًا ما بين روايات مسرحية، وقصص، وكتب سياسية. ويمتاز بأنه كاتب واقعي، يستمد قصصه من الحياة، ومن ملاحظاته للناس في أسفاره العديدة. وهو يكره الحواشي والأوصاف، ويعمد إلى الوقائع مباشرة، يمزج الحقيقة بالخيال، مزج كاتب خبير بفن القصص، عليم بطبائع النفوس، ميال إلى السخرية.

ولد سنة ١٨٧٤ وتعلم في "مدرسة الملك" بكانتربري ورحل في نشأته إلى باريس فتعلم اللغة الفرنسية وأتقنها، ثم عاد يدرس في إنجلترا، وبعدئذ انتقل إلى جامعة هيدلبرج بألمانيا، ثم سافر إلى إيطاليا وتعلم اللغة الإيطالية بمدينة فلورنس. وهكذا جمع في سني شبابه محصولًا وافرًا من المعارف والمعلومات وأتقن عدة لغات. وقد ألَّف أول رواية بعنوان "ليزا أوف لمبث" وهو في الثالثة والعشرين من عمره، واستمد موضوعها من ملاحظاته وهو طالب طب يتدرب في أحد المستشفيات بلندن، حيث عرف الفقر ووقف على ظروف الفقراء.

ومع أنه درس الطب، لم تجذبه مهنة الطب، كما لم تعجبه مهنة المحاماة من قبل، ومال إلى الأدب وحده، خصوصًا بعد أن نجحت روايته الأولى نجاحًا رائعًا، وعُدت من بدائع القصص الواقعي. وكان أبوه وجده محاميين، وقد وصل أخوه اللورد موم إلى منصب وزير مالية بريطانيا، ولكن وليم سومرست آثر الأدب على كل منصب، وكل مهنة أخرى.

وبعد نجاح روايته الأولى شرع يؤلف للمسرح، غير أن مديري المسارح رفضوا رواياته الهزلية التي قدمها، حتى كاد ييأس من النجاح في هذا المجال، وإذا بهزلية تدعى «اللادى فردريك» يقبلها أحد المسارح فتنجح نجاحًا منقطع النظير. وتدور حوادثها حول شاب وقع في غرام حسناء أكبر منه سنًّا. ثم تلتها هزليات أخرى، فيها نقد للمجتمع وقد نجحت كلها كذلك.

وعندما نشبت الحرب الأولى عام ١٩١٤ دخل الخدمة الطبية العسكرية في فرنسا ثم نقل إلى قلم المخابرات البريطانية في إنجلترا وقد تأثرت صحته من العمل المتواصل فسافر إلى جزر الجنوب ماڑًا بأمريكا، ووجد في تلك الجزر الهدوء الذي ينشده، وعاد بملاحظات وذكريات أعانته في تأليف روايته «القمر وستة بنسات» ولكنه أوفد قبل أن يتم هذه الرواية في بعثة دبلوماسية إلى روسيا. وهناك عاوده المرض، ورجع إلى إنجلترا مريضًا بذات الرئة، فدخل مصحًّا أمضى فيه عدة أشهر حتى عوفي من دائه، وسرعان ما

حفزه حب السفر إلى أن يبحر إلى الصين، وقد عاد منها برواية جديدة وهكذا ظل على سفر دائم، يستمد منه موضوعات لقصص، ينشرها بالمجلات الإنجليزية والأمريكية أو يؤلف منها كتبًا وروايات.

وقبل نشوب الحرب العظمى الأخيرة كان قد استقر في «فيللا» سماها «بورسك» عند رأس فرات بالقرب من مدينة نيس. ولكن الألمان احتلوا فرنسا في عام ١٩٤٠ فاضطر إلى الفرار في باخرة فحم حتى وصل إلى إنجلترا، ثم لجأ إلى أمريكا حيث استقر في مزرعة بولاية كارولينا الجنوبية. وهناك عاد إلى تأليف الكتب والروايات والقصص. وقد أقبل الأمريكيون على رواياته يخرجون منها أفلامًا، فلقيت هذه الأفلام نجاحًا عظيمًا حيثما عرضت في أمريكا وغيرها من البلدان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول
الاسم السري

في أوائل سبتمبر عاد أشندن الكاتب المحترف إلى الجزيرة البريطانية بعد مصاعب جمة بسبب نشوب الحرب. وبعد ذلك بأيام جمعته الظروف في إحدى السهرات بكولونيل كهل لم يَعلَق اسمه بذهنه. ودار بينهما حديث مما يسمر به الناس عادة في مثل تلك الحفلة. وقبيل انصرافه قال له الضابط:

- ألديك مانع من زيارتي في مكتبي لنتحدث بعض الوقت؟

- ليس عندي مانع بالتأكيد. متى تحب أن أزورك؟

- غدًا في الحادية عشرة، هل يوافقك هذا الموعد؟

ولمَّا أبدى له موافقته كتب له عنوانه بالقلم الرصاص. ولمَّا هَمَّ أشندن في اليوم التالي بالذهاب في الموعد المحدد وجد نفسه يدخل شارعًا عتيقًا كانت مبانيه بالطوب الأحمر تدل على إيغالها في القدم، كما تدل على أن هذا الشارع كان من الشوارع الهامة في الماضي، وكان البيت المقصود يحمل لافتة للبيع ونوافذه مغلقة كلها مما يوحي بأنه غير مأهول.

ورَنَّ أشندن جرس الباب ففتح له على الفور ضابط لم يوجه له أى سؤال بل أدخله على الفور إلى حجرة مستطيلة في مؤخرة البيت كانت يومًا ما حجرة مائدة. وزخارفها لا تتفق إطلاقًا مع أثاث المكتب القديم الموضوع فيها. ونهض الكولونيل لاستقبال أشندن وشد على يده. وعرف أشندن فيما بعد أن هذا الكولونيل يطلق عليه في المخابرات البريطانية اسم سري مكون من حرف واحد لا أكثر هو: «ر». وهو رجل طوله أكثر من المتوسط بقليل، له وجه أصفر به خطوط غائرة، وشعره خفيف أشهب اللون، وشاربه أشبه بفرشاة الأسنان، وكان الذي لفت ذهن أشندن لأول وهلة التقارب الشديد بين مقلتيه الزرقاوين. وكانت عيناه قاسيتين يقظتين تضفيان عليه سمة الدهاء بحيث تشعر من النظرة الأولى أنك إزاء رجل لا يحب ولا يوثق به، مع أن لهجته ودية وسلوكه لطيف.

وألقى الكولونيل على أشندن أسئلة كثيرة، ثم قال له من غير تمهيد إن فيه صفات كثيرة ترشحه لخدمة المخابرات السرية، فهو يتقن عدة لغات أوروبية، وحرفة التأليف تصلح غطاء جيدًا لتنقلاته وإقامته بعض الوقت في الدول المحايدة.

ولم يستغرق الاثنان وقتًا طويلًا في الوصول إلى اتفاق. وعندما نهض أشندن للانصراف كان قد سجل بعناية التعليمات الدقيقة الصادرة إليه. وأولها أن

يسافر إلى جنيف في اليوم التالي.

وكانت آخر كلمات الكولونيل وهو يصافحه مودعًا:

- من واجبي أن أُبصِّرَك بما ينتظرك في هذه الخدمة، إن أحسنت فلن تتلقى الشكر. وإن انزلقت في مكروه فلن تجد عونًا منا. فهل هذا مما تطيب به نفسك؟

- تمامًا.

- إذن أتمنى لك التوفيق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني
زيارة

كان أشندن في طريقه عائدًا إلى جنيف والليلة عاصفة والرياح تهب باردة من الجبال، ولكن الباخرة الصغيرة ظلت تشق طريقها بإصرار بين أمواج البحيرة المثلوجة، والمطر ينهمر وابلًا على سطحها في عنف كأنه امراة تشاغبه لا تريد أن تترك بابًا للإزعاج إلا وَطرقته.

وكان أشندن قد رحل إلى فرنسا كي يكتب تقريرًا ويرسله من هناك. وقبل ذلك بيومين حضر أحد عملائه الهنود إلى مسكنه في نحو الساعة الخامسة بعد الظهر على غير موعد سابق، وكانت التعليمات الصادرة إلى العملاء ألا يقابلوه في الفندق إلا للضرورة القصوى. وقال الهندي إن بنغاليًّا في خدمة الألمان وصل أخيرًا من برلين ومعه حقيبة سوداء بها تقارير ووثائق تهم الحكومة البريطانية. وفي ذلك الوقت كانت سياسة الأعداء العمل على إثارة المتاعب في الهند كي تضطر الحكومة الإنجليزية إلى إبقاء جيوشها هنالك مشغولة بقمع الاضطراب، هذا إن لم تضطر لإرسال مزيد من جيوشها الموجودة في فرنسا. وقد اتضح أنه يمكن حمل السلطات في برن على اعتقال ذلك البنغالي بتهمة ما، ولكن الحقيبة السوداء لم يعثر لها على أثر.

وكان الهندي عميل أشندن رجلًا شديد البراعة واسع الحيلة كثير الاختلاط بمواطنيه المعادين لبريطانيا فعرف أن البنغالي كان قد احتاط للأمر فترك الحقيبة في مخزن الأمانات بمحطة زيورخ. فلمَّا قبض عليه وألقي في السجن انتظارًا للمحاكمة لم يعد في وسعه أن يسلم البطاقة لأحد أعوانه كي يسحب الحقيبة من المخزن. وكان من المهم جدًّا لدى المخابرات الألمانية أن تؤمن محتويات الحقيبة على وجه السرعة. ولمَّا كان من المستحيل عليهم الحصول على الحقيبة بالوسائل الرسمية العادية من غير البطاقة، فقد استقر رأيهم على مهاجمة المحطة في هذه الليلة بالذات لسرقة الحقيبة. وهي خطة جريئة متهورة، ولكن أشندن وجد فيها ما يثير اهتمامه، بعد أن تسرب الملل إلى نفسه من رتابة العمل. وكان يعرف أن رئيس المخابرات الألمانية في برن رجل مندفع لا يعرف التورع.

وكان الموعد المحدد لذلك الاقتحام هو الساعة الثانية من صباح الغد. ولم يكن في استطاعة أشندن أن يثق بالبرق أو التليفون في الاتصال بالضابط البريطاني في برن. والعميل الهندي لم يكن في وسعه أن يذهب لمقابلة ذلك الضابط في برن، لأنه حمل رأسه على كفيه حينما حضر إلى جنيف لمقابلة أشندن، ولو شوهد خارجًا من حجرته بالفندق لاعتبره مواطنوه خائنًا. وصار من المرجح أن توجد جثته طافية بعد أيام قلائل على وجه البحيرة وقد غار

الخنجر في ظهره حتى المقبض. فلم يبقَ أمام أشندن إذن إلا أن يسافر بنفسه إلى برن.

وكان هناك قطار مسافر إلى برن بعد دقائق قليلة فأسرع أشندن. وبعد أربع ساعات كان يطرق باب قيادة المخابرات هناك. وكان اسمه غير معروف لأحد هناك سوى شخص واحد طلب أشندن مقابلته ولم يكن قد التقى به من قبل، فجاءه رجل طويل القامة يبدو عليه التعب فقاده إلى مكتب منعزل. وأفضى إليه أشندن بمهمته، وعندئذ نظر الرجل الطويل إلى ساعته، وقال:

إن الوقت لا يتسع كى نعمل شيئًا بأنفسنا. لأننا لن نصل إلى زيورخ في الوقت المناسب. فمن الخير أن نوعز إلى السلطات السويسرية بالعمل حتى إذا اقتحم أصحابنا المحطة وجدوها في حراسة شديدة. ويستحسن أن تعود أنت إلى جنيف.

وصافح أشندن وودعه إلى الباب. وأدرك أشندن أنه لن يعرف بقية القصة لأنه مجرد حلقة صغيرة في سلسلة ضخمة من العملاء السريين.

وكان يشعر بالبرد شعورًا شديدًا رغم معطفه المبطن بالفراء، وقد وَطَّن النفس على أخذ حمام ساخن بمجرد وصوله إلى الفندق، ثم يتناول عشاءً دسمًا بجوار المدفأة في حجرة النوم وهو في بيجامته، كى يسري الدفء إلى أوصاله المقرورة، ثم يخلو بعدئذ إلى غليونه وبين يديه كتاب. وكانت هذه الأمنية كافية لتخفيف فظاعة الجو على سطح الباخرة الصغيرة. وكان جواز سفره لا يحمل أية إشارة إلى قدومه من فرنسا. وهذا الجواز خالٍ من الأختام الفرنسية مما قد يعرضه لمتاعب، ولا سيما أن البوليس السريَ السويسري كان شديد اليقظة لوضع حد للمؤامرات والدسائس التي يقوم بها الفريقان المتحاربان فوق الأراضي السويسرية المحايدة.

وكان هناك كالعادة ضابطان من ضباط الشرطة على الرصيف لمراقبة النازلين من الباخرة. وتنفس أشندن الصعداء عندما تخطاهما من غير أن يحدث شيء. وسرعان ما اتجه تحت جنح الظلام نحو فندقه. وكانت المتاجر قد أغلقت أبوابها وخلت الشوارع إلا من عدد يسير جدًّا من المارة، وكان فندقه في مواجهة البحيرة، فما أن فتح له البواب حتى أسرع يخترق البهو المتلألئ بالأنوار ليركب المصعد. وإذ بعامل الاستقبال يخبره أن في حجرته سيدين ينتظران عودته، ولم يكن لأشندن أصدقاء في جنيف فقال بدهشة:

- من تراهما يكونان؟

وابتسم الرجل الذي كانت هبات أشندن السخية تغمره، وقال:

- لا أخفي عليك أنهما من رجال الشرطة.

- ماذا يريدان؟

- لم يصرِّحا لي بشيء عن غرضهما. لقد سألا عنك فقط، فقلت إنك خرجت لنزهة. فأصرَّا على انتظار عودتك في حجرتك.

- ومنذ متى؟

- منذ ساعة.

وغاص قلب أشندن ولكنه لم يدع ملامحه تنبئ عن قلقه، وغادر المصعد متعللًا للعامل بأنه يريد الصعود على قدميه ليقاوم البرد. والحق أنه صعد الطبقات الثلاث ببطء ليمنح نفسه مهلة للتفكير.

وكان على شبه يقين من سبب حضور ضابط الشرطة، ولعن ظروف التعب بعد الرحلة المرهقة والبرد الشديد. فليست لديه الهمة كي يجابه موقفًا عصيبًا. وليس لديه الاحتمال لقضاء مثل هذه الليلة الفظيعة في زنزانة الحبس.

وخطر بباله أن ينزل ثانية ويغادر الفندق ويترك حقائبه ويركب أول قطار إلى خارج الحدود السويسرية. لكنّ قدميه لم تستجيبا لهذا الخاطر واستأنفتا الصعود. مع أنه كان يعلم جيدًا أن ثبوت تهمة النشاط المنافي للحياد معناه السجن سنتين، ولكن هذه ضريبة العمل في المخابرات كما أن التعرض للقتل ضريبة الجالسين على العرش.

ولمَّا وقف أخيرًا أمام باب حجرته المقفل بدأت عزيمته تتجمع وذهنه يتوقد. وكانت الابتسامة الطبيعية على شفتيه عندما فتح الباب وواجه زائريه بتحية تفيض بشاشة ومودة.

وكانت جميع الأنوار في الحجرة مضاءة. والنار متوهجة في المدفأة. ودخان السجائر يملأ الجو. وكان أشندن محبًّا للأناقة والترتيب. فاستطاع أن يفطن بنظرة واحدة إلى أن جميع محتويات الحجرة فتشت تفتيشًا دقيقًا، ولم يزعجه ذلك لأنه لم يكن يحتفظ في حجرته بأية وثيقة يمكن أن توقعه في مأزق. وأما شفرته فكان يحفظها عن ظهر قلب. ولكن عملية التفتيش نفسها أكدت ارتياب السلطات السويسرية في أمره.

- أية خدمة أستطيع تقديمها لكما أيها السيدان؟ ألستما تجدان الجو حارًّا هنا فيحسن أن تخلعا معطفيكما وقبعتكما؟

- لن نبقى إلا برهة وجيزة.

وخلع أشندن وشاحه ومعطفه الثقيل ثم قدم إليهما سيجارًا فاخرًا، أخذاه من غير كلمة شكر، لكنّ فخامة السيجار أوحت اليهما بشيء من الاحتشام

والاحترام فخلعا قبعتيهما، ثم قال أحدهما:

- نحن من الشرطة، ونريد الاطلاع على جواز سفرك.

وأبرز أشندن جواز سفر جديد ليس فيه أية معلومات عن تحركاته سوى أنه جاء من لندن منذ ثلاثة أشهر ولم يبرح سويسرا حتى ذلك الوقت. وتناول أحدهما الجواز ونظر فيه بعناية ثم أعطاه لزميله وهو يقول:

- أظنه على ما يرام.

وكان أشندن في تلك الأثناء واقفًا أمام النار يتدفأ وبين شفتيه سيجارة فلم يعلق بشيء وإن كان يرقب الرجلين بحذر خفي يموهه بطلاقة محياه. ثم رد إليه أحدهما الجواز، وهو يقول:

- لقد كلفنا مدير الشرطة بالاستعلام عنك عن بضعة أمور. إذ يبدو أن الكثيرين من النزلاء قدموا شكاوى من الضجة التي يحدثها المنصرفون من الكازينو في ساعة متأخرة من الليل فأحببنا أن نعرف هل أنت شخصيًّا ممن أزعجتهم الضجة؟ فلو كانت الضجة شديدة لسمعتها حتمًا لأن طريقهم من تحت نافذتك.

وذهل أشندن لاهتمام مدير البوليس براحته في منامه إلى هذه الدرجة. ولكنه رجح أن الرجل تعلل بهذا العذر لأنه لم يجد ضده دليلًا يبرر مواجهته بالاشتباه. فمن المقطوع به أن هناك من وشى بأشندن، ولكنه قال بصورة طبيعية للغاية:

- الحقيقة أنني أنام نومًا عميقًا. ولم يزعجني في إقامتي شيء. ولو فرضنا أنني استيقظت مرة من نومي على الضجة فلن يخطر ببالي أن أتقدم بشكوى. فمن حق الناس أن يمرحوا في هذا الوقت العصيب الذي تجتازه البشرية. هذا شعوري أيها السيدان.

- لقد لاحظت في جواز سفرك أن مهنتك التأليف يا سيدي. وهي مهنة جليلة تجلب لصاحبها المجد، فماذا تفعل هنا في جنيف؟

فشعر أشندن أن وراء السؤال ما وراءه، وقال ببراءة تامة:

- أؤلف مسرحية.

وأشار بيده إلى الأوراق المتناثرة على المنضدة، وكان واثقًا أنهما اطلعا عليها قبل حضوره. فقال أحدهما:

- ولماذا تؤلف مسرحيتك في جنيف بالذات لا في وطنك؟

فازدادت ابتسامة أشندن إشراقًا. وكان هذا السؤال من الأسئلة. التي أعد الكتابة عنها منذ قدومه إلى سويسرا، فقال:

- هل نسيت الحرب؟ إن وطني في حالة قلق بسبب الحرب فمن المستحيل أن أجد هناك الهدوء اللازم لكتابة المسرحية.

- وهل هي ملهاة ام مأساة؟

- ملهاة من النوع الخفيف. والفنان يحتاج إلى الهدوء والسلام كى ينتج. وكيف يتوفر ذلك في بلد محارب؟ ومن حسن حظ سويسرا أنها محايدة. ولذا خيل إليَّ أنني سأجد في جنيف الهدوء الذي أنشده.

وظهر الاقتناع على الشرطيين فنهضا وصافحهما أشندن. ثم أغلق خلفهما الباب وزفر زفرة ارتياح عميقة دخل بعدها الحمام، وهو يتذكر مشاحنة حدثت منذ بضعة أيام بينه وبين ساقٍ سويسري من أصل ألماني طلب زيادة أتعابه فرفض أشندن. وانصرف الساقي برنارد حانقًا، ورجح أشندن أن برنارد هو الذي وشى به إلى السلطات السويسرية. وحمد ربه لأن الأزمة مرت هذه المرة بسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث
الآنسة كنج

استلقى أشندن مسترخيًا في حوض الاستحمام، مسلمًا بدنه للماء الساخن، وقد سره أنه سيتمكن في الغالب من إتمام مسرحيته في هدوء وسلام. فالشرطة قد صرفت أنظارها عن تعقبه في الوقت الحاضر وإن كان من المحتمل أنها بدأت ترقب حركاته منذ الآن بشيء من العناية. ولكن من غير المتوقع أن تتخذ ضده خطوة أخرى قبل أن يكون قد أتم على الأقل مسودة الفصل الثالث. فمن الواجب إذن أن يلزم جانب الحيطة لأن زميله في مدينة لوزان حكم عليه منذ أسبوعين بالحبس. ولكن ذلك ينبغي ألا يثقل على أعصابه، فَسَلَفُهُ في مدينة جنيف أصيب بانهيار عصبي على أثر الضغط الناتج من مراقبة الشرطة المستمرة له، ولذلك اضطر المسؤولون أن يسحبوه وأرسلوا أشندن ليحل محله.

وأهم شيء في عمل أشندن أن يذهب مرتين كل أسبوع إلى السوق ليتلقى التعليمات التي تحضرها له فلاحة عجوز من إقليم السافوا الفرنسي تأتي إلى جنيف لتبيع الزبد والبيض مع رفيقاتها، والتفتيش على الحدود ليس دقيقًا لأن أولئك الفلاحات يصلن إلى نقطة التفتيش قبيل الفجر، والموظفون نيام، فيتخلصون من ثرثرتهن وضجتهن بأسرع وقت. ولا يخطر بالبال أن هذه العجوز السمينة المتوردة الوجه التي يفتر فمها عن ابتسامة ساذجة تخبئ بين ثدييها الضخمين قصاصة صغيرة من الورق تكفي لإلقاء القبض عليها وعلى كاتب إنجليزي يزحف إلى أواسط العمر. وكانت هذه المرأة تقدم على هذه المجازفة ثمنًا لإبعاد ابنها عن خنادق الميدان.

وكان أشندن يذهب إلى السوق بعد التاسعة عندما تكون ربات البيوت قد فرغن من شراء حوائجهن، ويقف أمام السلة ليشتري نصف رطل من الزبد، ويعطيها ورقة مالية فترد إليه بقية نقوده، ومعها القصاصة الصغيرة، فيدس قبضته في جيبه. ويعود مسرعًا إلى الفندق فيطالعها خلسة ويحفظها عن ظهر قلب ثم يحرقها...

وتنهد أشندن لأن حرارة الماء بدأت تقل، ولم يكن في استطاعته أن يصل إلى الصنبور المرتفع بيده ولا بأصابع قدمه، وهو راقد. ولو نهض ليضيف ماء ساخنًا إلى الحوض، سيكون قد تخلى عن الاسترخاء، وعندئذ يستوي عنده العودة إلى الماء الساخن أو الخروج من الحمام.

وظل أشندن مترددًا برهة، وهو يسلي نفسه بتذكر الفكاهات التي يريد إيرادها في مسرحيته، وإذا به يسمع طرقًا خفيفا على باب حجرته فهتف:

من الطارق؟

- رسالة.

ادخل وانتظرني دقيقة.

وخرج أشندن من حوض الاستحمام وأحاط نفسه بمنشفة ثم دخل حجرته فوجد وصيفًا من وصفاء الفندق ينتظره برسالة من إحدى النزيلات تدعوه للعب البريدج بعد العشاء في جناحها الخاص. والرسالة بتوقيع البارونة فون هيجنز. وكان أشندن يتوق إلى تناول عشائه في حجرته وهو بملابس النوم ثم يطالع كتابًا بجوار المدفأة. فَهَمَّ أن يرفض الدعوة، ثم خطر له أن الرفض في مثل ظروفه غير مستحب، بل يستحسن أن يظهر ساعة العشاء في حجرة المائدة الكبرى. فلا بد أن أخبار زيارة رجال الشرطة له قد ترددت على الألسنة. فمن الواجب أن يظهر أن هذه الزيارة لم تترك لديه أثرًا سيئًا. وإحجامه عن الظهور في قاعة المائدة ورفضه دعوة البارونة سيفسر تفسيرًا سيئًا.

وخطر بباله أيضًا أنه ربما كان المُبلِّغ ضده من نزلاء الفندق. وكان اسم البارونة فون هيجنز من بين الأسماء التي حامت حولها ظنونه. فمن الطريف أن يلعب معها البريدج. ولذا قال للرسول إنه يسره تلبية الدعوة، ثم شرع يرتدي ملابس السهرة.

كانت البارونة فون هيجنز امرأة نمساوية، تتكلم الإنجليزية والفرنسية بطلاقة تامة. وكان جدها لأبيها سائسًا إنجليزيًّا في يوركشير. صحبه معه إلى النمسا أحد الأمراء. وكان السائس الإنجليزى جميل الصورة ففتن إحدى الغرندوقات واستغل تلك الحظوة بحيث أصبح في نهاية حياته بارونًا ووزيرًا مفوضًا للنمسا لدى بلاط إحدى الإمارات الإيطالية.

والبارونة هي حفيدته الوحيدة، تزوجت زواجًا غير موفق، ثم انفصلت عن زوجها واستردت اسم عائلتها، ولكنها لم تكن تذكر عن جدها سوى أنه كان سفيرًا. ولا تشير طبعًا إلى أنه بدأ حياته سائسًا. وقد علم أشندن هذه الحقيقة من فينا عندما توثقت بينهما المعرفة ولاح له أن معرفة المزيد عن حياتها أمر يقتضيه الحرص في مهنته.

وعلم أيضًا من فينا أن إيرادها الخاص لا يسمح لها بالحياة على هذا المستوى الباذخ في جنيف. ولمَّا كانت تتحلى بمزايا كثيرة تزكيها لمهنة الجاسوسية، فمن قبيل الاحتياط يجب اعتبارها جاسوسة. وعلى هذا الأساس صار أشندن يراها زميلة في المهنة، مع اختلاف في المعسكر.

وعندما نزل أشندن إلى حجرة الطعام وجدها غاصة بالناس، فجلس إلى مائدته المعتادة، ثم طلب على حساب الحكومة البريطانية زجاجة شمبانيا. وألقت إليه البارونة ابتسامة خلابة، وهي امرأة تجاوزت الأربعين، بيد أنها أنيقة رشيقة ذات جمال خلاب للغاية: شقراء ذهبية الشعر ذات ملامح دقيقة، ومقلتين زرقاوين، وأنف مستقيم، وبشرة يختلط فيها الورد باللبن، ترتدي ثوب سهرة يبدي من جيدها الأتلع أكثر مما يخفي. ومع فخامة ثيابها لم تكن تتحلى بمجوهرات، مما يدل على أن الدولة التي تستخدمها فتحت لها حسابًا ضخما لدى دور الأزياء. ولم تفتح لها حسابًا لدى تجار المجوهرات.

وفي أثناء انتظار أشندن لأطباق الطعام جعل يجيل بصره في القاعة. ومعظم الحاضرين أشخاصهم مألوفة لديه، فمدينة جنيف في ذلك الحين كانت مهد الدسائس الدولية. وكان هذا الفندق مركزها الرئيسي. كنت تجد فيه فرنسيين وإيطاليين وروسيين وأتراكًا ورومانيين ويونانيين ومصريين. نفر منهم هربوا من أوطانهم بسبب الحرب، ولكن نفرًا آخر منهم جواسيس بغير شك. فكان هناك مثلًا بلغاري يعمل تحت رئاسة أشندن، ولكنه على سبيل الاحتياط لم يكلمه في جنيف مرة واحدة. وهاهو ذا يتناول العشاء مع اثنين من مواطنيه، وهناك مومس ألمانية صغيرة السن ذات عينين زرقاوين ووجه مثل وجه الدمية، وهي دائمة التنقل على طول شاطىء البحيرة بين جنيف وبرن. ومهنتها تتيح لها الحصول على نتف من المعلومات لا شك أن رئاسة المخابرات الألمانية تعيرها أهمية كبرى. وهذه المومس تنتمي طبعًا إلى طبقة تختلف كثيرًا عن طبقة البارونة ومجال نشاطها لا تستطيع أن تنشط فيه البارونة.

ولاحظ أشندن أيضًا وجود الكونت فون هولزمندن، وهو رئيس الجاسوسية الألمانية في مدينة فيفي. وينتمي إلى أسرة تصاهر العائلة القيصرية. وكان يومًا ما يعيش في لندن وهناك عرفه أشندن، ولمَّا نشبت الحرب صار كل منهما يتجاهل الآخر. ولم يسبق للكونت أن وطئت قدمه هذا الفندق، كما أنه ليس من المعقول أن حضوره الليلة كان اعتباطًا.

وتساءل أشندن هل لوجود الكونت الليلة علاقة بظهور الأمير "علي» في قاعة المائدة على غير المألوف. والأمير "علي» مصري من أقرب أقارب الخديوي الذي عزله الإنجليز عن عرش مصر لميوله التركية. وقبل أسبوع حضر الخديوي تحت ستار من السرية الشديدة، فأمضى ثلاثة أيام في الفندق مع الأمير علي في جناحه الخاص للتشاور في إثارة المتاعب لبريطانيا على ضفاف النيل. والأمير علي يقيم في الفندق بصفة دائمة مع ابنتيه ومدير أعماله مصطفى باشا. ومن عادة الأمير أن يتناول طعامه في جناحه الخاص بمفرده. أما كريمتاه فمن النوع المتحرر جدًّا، وتتعشيان مع السكرتير

ومربيتهما الإنجليزية العجوز الآنسة كنج في قاعة المائدة، ثم تخرجان للسهر إلى الصباح في المراقص الليلية. ولكن الأمير الليلة خالف عادته وجلس يتعشى في القاعة الكبرى.

والآنسة كنج إنجليزية كانت مربية للأمير علي من قبل. وقد حاول أشندن في مبدأ إقامته أن يحييها باعتبارها مواطنة، ويعقد صلة ودية معها تنفعه في عمله، ولكنها أظهرت برودًا أوقفه عند حده، حتى أنها قالت له بالفرنسية، لأنها ترفض التحدث بالانجليزية:

- لا أريد أن أتعرف إلى غرباء!

وأصبحت هذه العجوز توليه ظهرها كلما التقت به وجهًا لوجه. وكان من المفروغ منه أنها تلبس شعرًا مستعارًا بني اللون. وفي أحيان كثيرة كانت لا تحسن تثبيته فوق وجهها المغطى بالتجاعيد، بيد أنها كانت تصر على وضع بقعتين حمراوين فوق وجنتيها، وصبغ شفتيها بصباغ أحمر صارخ. أما ملابسها فذات ألوان فاقعة، وقبعتها مما ترتديه الفتيات الصغيرات، ولكن حذاءها له دائمًا كعب مرتفع جدًّا. فلا عجب أن كان الناس يتلفتون في الشارع ليحملقوا فيها بأفواه مفتوحة.

وعلم أشندن أن الآنسة كنج لم تزر إنجلترا منذ التحقت بخدمة والدة الأمير علي. فتملكه الفضول لمعرفة ما عسى أن تكون هاتان العينان قد أبصرتاه في أقبية الحريم في غضون نصف قرن، فمما لا شك فيه أنها أدركت عهد إسماعيل، وما كان في أيامه من دولة طائلة لغانيات الحريم!

وعلم أشندن أيضًا أنه لم تعد لها في وطنها إنجلترا أسرة أو أصدقاء وأن عواطفها معادية لإنجلترا. وأن خشونتها معه ترجع ولا شك إلى أوامر مشددة من مخدومها أن تكون منه بالذات على حذر، فأخذ يتساءل ما الذي يدور في رأسها وهي جالسة تنظر بعينيها إلى كريمتي الأمير علي المتحررتين وهما تسهران كل ليلة وحدهما في الملاهي السيئة السمعة حتى الصباح.

وبعد قليل انتهت البارونة فون هيجنز من تناول عشائها فجمعت منديلها وحقيبة يدها وتهادت خارجة والخدم ينحنون لها على الجانبين. حتى إذا بلغت مائدة أشندن تمهلت وقالت له بإنجليزيتها المتقنة التي تكاد تخلو تمامًا من اللكنة الألمانية:

- إني لسعيدة أنك ستتمكن الليلة من لعب البريدج. فهل لك أن تأتي إلى حجرة جلوسي لتتناول قهوتك؟

- ما أبدع هذا الثوب!

- إنه فظيع! فلا أدري الآن ماذا أفعل وقد امتنع عليَّ الذهاب إلى باريس لشراء ثيابي، ولا أدري لماذا جر هؤلاء البروسيون وطني المسكين إلى هذه الحرب الفظيعة...

ورشقته بابتسامة خلابة ثم استأنفت تهاديها. ولم يفرغ أشندن من تناول عشائه إلا بعد مدة، وعندما نهض للانصراف كانت قاعة المائدة قد أمست خالية تقريبًا. وصعد إلى الطابق الثاني وطرق باب البارونة، ففتحت له على الفور واستقبلته مبسوطة اليدين في مودة سابغة وجذبته إلى الداخل. فإذا بالشخصين اللذين سيلعبان معهما هذه اللعبة الرباعية موجودان، وهما الأمير علي وسكرتيره مصطفى باشا. ودهش أشندن دهشة شديدة. ثم قامت البارونة بالتقديم في فرنسيتها الطلقة. وأبدى مصطفى باشا حفاوة وذلاقة لسان، اما الأمير فكان خجولًا قليل الكلام.

ومصطفى باشا رجل ضخم الجسم بدين في نحو الخامسة والأربعين له عينان واسعتان كثيرتا الحركة وشارب كبير أسود. يحلي رباط عنقه بماسة كبيرة، ويزين رأسه بطربوش أحمر.

وأخذت البارونة تطري أدب أشندن ومؤلفاته وقدرته في لعب البريدج. ولكن أشندن لم يغتر بهذا الإطراء، لأنه كان يعلم حدود تلك القدرة الحقيقية. إنه لاعب جيد بين لاعبي الدرجة الثانية، وقد لعب أمام أحسن لاعبي العالم وأدرك أنه ليس من مستواهم. وظل حائرًا في السبب الذي دعا البارونة للجمع بينه وبين هذين المصريين المنفيين في هذه الليلة، وغلب على ظنه أن البارونة هي التي حرضت عليه رجال الشرطة السويسرية. لذلك وجهت إليه الدعوة بعد أن فشلت خطتها في القبض عليه لتنفي عن ذهنه الشك فيها.

وكان معظم الحديث أثناء اللعب عن جمال باريس وذكريات الأمير فيها وعن مسكنه الفخم، وما يضمه في العاصمة الفرنسية من أفخم الرياش وأثمن التحف الفنية. وأظهر أشندن عطفه وإعجابه بالحركة القومية في مصر وأنه يرى «فينا» أجمل عواصم أوروبا. فكان يرد على المجاملات بمجاملات مثلها، وهو حريص على ألا يظفروا منه بمعلومات تتجاوز ما يمكنهم معرفته مما ينشر في الصحف السويسرية. وخيل إليه أن هناك عملية جس نبض لمعرفة مدى استعداده لبيع مواهبه لمعسكر آخر. وكان جس النبض بطريقة لبقة للغاية.

وما أن دقت الساعة منتصف الليل حتى نهض الأمير واقفًا، وقال:

- لقد تأخر الوقت. ولا شك أن مستر أشندن لديه عمل كثير في الغد فلا يجمل بنا أن نبقيه ساهرًا.

وفطن أشندن إلى أن هذه إشارة له بالانصراف. فنهض مستأذنًا وترك الثلاثة يتداولون في الموقف وهو واثق أنهم لم يظفروا منه بطائل وما أن دخل باب حجرته حتى شعر بتعب شديد ووجد مشقة في فتح عينيه وهو يخلع ثيابه. وما أن رقد في فراشه حتى استغرق في النوم.

وخيل إليه أنه لم ينم أكثر من خمس دقائق عندما أيقظه طرق متوالٍ على الباب، وأصغى برهة ثم هتف:

- من هناك؟

- الوصيفة، افتح. عندي ما أقوله لك.

فنهض أشندن وهو يلوك اللعنات وأوقد المصباح ثم سوى شعره بأصابعه وفتح الباب. فرأى الوصيفة السويسرية وقد بدا من ملابسها أنها ارتدتها في عجلة شديدة، ووجهها مكفهر.

- السيدة الإنجليزية العجوز مربية الأميرتين المصريتين في النزع الأخير، وهي تلح في حضورك.

- أنا؟ مستحيل. أنا لا أعرفها. وهي كانت على ما يرام هذا المساء.

- ولكنها تلح في طلبك. هذا ما قاله الطبيب. فأرجو أن تسرع بالحضور لأنها في الرمق الأخير.

- لا بد أن هناك خطأً. فهي لا يمكن أن تطلبني.

- لقد ذكرت اسمك ورقم حجرتك. فأرجوك أن تسرع.

فهز أشندن كتفيه وَلَبِسَ خفًّا ومعطفًا، ودسَّ في جيبه مسدسًا صغيرًا لا لأنه يجد لاستعماله نفعًا، فهو يكره الأسلحة النارية، بل لما يبعثه حمله في نفسه من طمأنينة في مثل هذا الظرف الغامض.

وحجرة الآنسة كنج ترتفع فوق حجرة أشندن بطابقين. وفي الطريق دهش أشندن عندما عرف أن الساعة بلغت الثالثة. وعندما طرقت الوصيفة الباب فتحه مسيو بريديه نائب مدير الفندق. وكان يلبس في رجله خفًّا وفوق بيجامته سترة بذلة السهرة السوداء. فكان منظره مضحكًا، ولا سيما أن شعره المصفف في العادة بعناية كان غاية في الفوضى والتشعب. وأخذ الرجل يفرط في الاعتذار إلى أشندن لإزعاجه قائلًا:

- ألف معذرة. ولكنها ظلت تلح في طلبك. وقال الدكتور «أربو» إنه لا بد من إيقاظك.

- لا بأس.

ودخل أشندن فإذا حجرة خلفية صغيرة جميع مصابيحها مضاءة، ونوافذها مقفلة، وجميع ستائرها مسدلة. فكانت الحرارة شديدة. والطبيب السويسري الملتحي الأشيب واقف بجوار الفراش. ورغم الإرهاق الشديد كان يبذل عنايته كلها. وقام بريديه بالتعريف:

- هذا هو مستر أشندن الذي طلبته الآنسة كنج. الدكتور أربو من كلية الطب بجامعة جنيف.

ومن غير أن ينطق الطبيب بكلمة واحدة أشار إلى الفراش. وكانت نظرة واحدة كافية لإصابة أشندن بصدمة. فالشعر المستعار موضوع بجوار الفراش على كرسي. ورأسها مغطى بطاقية بيضاء من القطن وقميص نومها يرجع طرازه إلى القرن الماضي. ووجهها مغطى بالكريم الذي استعملته لإزالة المساحيق عن وجهها. وقد بدت ضئيلة الحجم جدًّا وهي راقدة في فراشها كأنها طفلة. وزاد مظهر تقدمها في السن. فلا بد أنها تجاوزت الثمانين حتى صارت أقرب إلى الدمية منها إلى البشر، دمية ساحرة عجوز تفنن في صنعها فنان ساخر. وكان الناظر إليها خليقًا أن يظنها ميتة لولا هاتان العينان السوداوان ونظرتهما الثابتة.

وخيل إلى أشندن أن تعبير نظرتها تغير حين رأته، فقال بمرح مصطنع:

- يؤسفني جدًّا يا آنسة كنج أن أراك بهذه الحالة.

فقال الطبيب:

- إن الآنسة كنج لا تستطيع الكلام. لأنها أصيبت بنوبة أخرى عندما كانت الوصيفة توقظك. وقد حقنتها وربما استعادت القدرة على استخدام لسانها بعد برهة، فعندها اسمع ما تقوله لك.

- سأنتظر بكل ارتياح.

وخيل إليه أنه لمح في هاتين العينين السوداوين نظرة شكر على هذه الكلمة. وساد بعدها الصمت بين الأربعة المحيطين بفراش العجوز المحتضرة.

وأخيرًا قطع بريديه الصمت قائلًا:

- إذا لم يكن هناك ما أستطيع أن أصنعه هنا فمن المستحسن أن أعود إلى فراشي. أليس كذلك؟

فقال له الطبيب:

اذهب أنت ياصديقي. فليس بيدك أن تصنع شيئًا.

فالتفت مسيو بريديه إلى أشندن قائلًا:

- هل تسمح لي بكلمة على انفراد؟

- بالتأكيد.

ولمح الطبيب نظرة فزع مفاجئة في عيني الآنسة كنج فقال برفق:

- لا تفزعي. السيد أشندن ليس منصرفًا. سيبقى ما شئتِ أنت أن يبقى.

وانتحى مساعد المدير العام للفندق بأشندن ناحية خارج الباب، وقال:

- هل أستطيع أن أعتمد يا سيد أشندن على كتمانك؟ من المزعج جدًّا أن يموت أحد في فندق. فالنزلاء الآخرون يستاءون من ذلك ويجب أن نبذل كل ما في وسعنا حتى لا يعلموا شيئًا، وسأعمل على نقل الجثة في أول فرصة. وسأكون شاكرًا لك غاية الشكر إذا لم تذكر أمام أحد أنه حدثت في الفندق حالة وفاة.

- تستطيع أن تثق بذلك كل الثقة.

- لسوء الحظ أن المدير العام متغيب هذه الليلة. وأخشى أنه سيسخط جدًّا عندما يعلم. وطبعًا كان في نيتي أن أستدعي نقالة تحملها إلى أحد المستشفيات، ولكن الطبيب أكد على أنها ستموت لو حركناها، ورفض رفضًا باتًّا أن يسمح لي بنقلها. فليس ذنبي أن تموت في الفندق!

- قلما يراعي الموت مقتضى الحال.

- إنها امرأة عجوز وكان يجب أن تموت منذ سنوات طويلة. أو على الأقل كان يجب على هذا الأمير المصري أن يعيدها إلى وطنها فما حاجته إلى مربية طاعنة في السن بهذه الصورة؟

- وأين الأمير الآن؟ لقد ظلت في خدمته سنوات طويلة. ألم يكن ينبغي أن توقظوه؟

- إنه ليس في الفندق. خرج مع سكرتيره ولعله يلعب الآن البكاراه. وعلى كل حال لا يسعني إلا أن أرسل من يبحثون عنه في أرجاء جنيف.

- والأميرتان؟

- لم تعودا من السهرة بعد. فهما مجنونتان بالرقص كل ليلة حتى الصباح. ولا أدري في أي نادٍ ليلي هما الآن، ولا أظنهما على كل حال ستشكراني كثيرًا إذا أنا أرسلت في طلبهما الآن بسببها. وعند عودتهما سيخبرهما عامل الاستقبال بما حدث لمربيتهما. وهي على كل حال لا تريدهما، لأنني عندما أيقظوني ودخلت عليها الحجرة سألتها هل تريد الأمير أو الأميرتين فقالت بحدة: لا، لا!

- هل كانت تستطيع الكلام عندئذ؟

- بصعوبة، ولكن الأمر الذي أدهشني أنها كانت تتكلم باللغة الإنجليزية، مع أنها لم تستخدم إلا الفرنسية. وكانت تكره كل ما هو إنجليزي.

- ولماذا طلبت حضوري؟

هذا ما لا أعرفه. قالت إن لديها ما يجب أن تقوله لك في الحال. وكانت تعرف رقم حجرتك، وعارضت في مبدأ الأمر. فمن حقك أن تنام مستريحًا في حجرتك التي تدفع أجرتها. ولكن الطبيب ألحَّ في وجوب إيقاظك. وكانت هي أكثر إلحاحًا حتى أنها عندما طلبت منها أن تنتظر إلى الصباح انفجرت باكية.

وحدج أشندن المسيو بريديه بنظرة فاحصة، فإذا ذلك الرجل السويسري لا يجد في الأمر أي باعث على التاثر...

- سأنتظر أنا إلى أن ينجلي الموقف.

- وأنا سأذهب إلى فراشي شاكرًا لك تعاونك ووعدك بالكتمان.

وعاد أشندن إلى غرفة المحتضرة، فحولت على الفور نظراتها إليه. شعر بتأثر شديد، وأن من واجبه أن يقول لها كلمة ملطفة. ولكنه لم يدرِ ماذا يقول. وأخذ الطبيب يشرح له كيف أصيبت بذلك الفالج فجأة. وبعد قليل قال لأشندن:

- إنها قد تبقى على هذا الوضع ساعات. وليس أمامي ما أصنعه لها فلا فائدة من بقائي وأمامي غدًا يوم حافل بعيادة المرضى. ويمكنك إيقاظي بالتليفون إذا حدث أي تغيير في حالتها.

ثم ربت على خدها المتغضن كأنها طفلة، وقال لها:

- اجتهدى أن تنامي. وسأعود لزيارتك في الصباح.

وبعد أن ودَّع أشندن الطبيب إلى الباب قال للوصيفة:

وأنت أيضًا عندك عمل مرهق غدًا. ماذا يبقيك؟ اذهبي إلى فراشك وحاولي أن تنامي.

ونهضت الوصيفة فانصرفت وبقي أشندن وحده بجوار فراش المحتضرة حتى ظهر في عينيها السوداوين مجهود يائس للكلام. ثم انهمرت الدموع من عينيها فأخرج أشندن منديله، وجففهما، وهو يقول لها:

- لاتزعجي نفسك. لاتبتئسي يا آنسة كنج. اصبري قليلًا وسوف تستطيعين قول كل ما تريدين.

ولكن نظرة القلق لم تذهب من عينيها. وبدأت أعصابه تتمزق. فأطفأ المصابيح إلا واحدًا واشتدت رغبته في تدخين سيجارة. ولكنه وجد الموقف غير مناسب، وظل صامتًا ينظر بين الحين والحين نحوها ليجد عينيها مثبتتين في وجهه. وهو لا يدري لماذا بعثت إليه هو بالذات؟ هل أحست بحنين مفاجئ ساعة الموت إلى بلادها؟ إن كان الأمر كذلك فلماذا لم ترسل إلا إليه وبين النزلاء إنجليز كثيرون؟ إنها تعلم أنه جاسوس فلا بد أن ما تريد أن تقوله له علاقة بهذه الصفة. إنها معلومات يستطيع أن يستخدمها أو يجب أن يعرفها قبل فوات الأوان.

وبعد ساعة بدأت تضطرب. ولمح حركة على شفتيها، فأدنى أذنه من فمها. وازداد الرعب اليائس في نظرتها. ولم تستطع أن تقول له إلا كلمة واحدة بصوت أجش وهي تتوثب في جهد أخير للقيام. فحمل رأسها بين يديه تلبية لهذه الرغبة. هذه الكلمة الواحدة هي:

- إنجلترا.

ثم ثقل رأسها. ولما وسَّدها أدرك أنها فارقت الحياة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع
المكسيكي الأمرد

قال الكولونيل لأشندن:

- هل تحب المكرونة؟

فأجابه أشندن متعجبًا:

ماذا تعني بالمكرونة؟ إنك حين تسألني هذا السؤال كأنك تسألني هل تحب الشعر. فأنا أحب كيتس وأحب وردزورث وأحب فيرلين وأحب جيته. وأنت حين تسأل عن المكرونة هل تعني منها الأسبجتي أم التليانلي أم الريجاتوني أم الفرمتشلي أم التوفالي؟

- أعني المكرونة بسائر أنواعها.

أنا رجل يحب جميع الأشياء البسيطة في الحياة. أحب البيض المسلوق، والمحار، والبطارخ، وسمك السلمون المشوي، والحمل المشوي، وصدر الإوز المشوي، والبودنج. لكن أحبَّ الأشياء البسيطة جميعًا إليَّ، بل الشيء الوحيد الذي أستطيع أن آكله كل يوم لا بغير تقزز فحسب بل بشغف وتلهف هو المكرونة!

فقال الكولونيل عندئذ:

- يسرني أن أسمع منك هذا الكلام لأني أريدك أن تذهب في مهمة إلى إيطاليا.

وكان أشندن قد حضر من جنيف لمقابلة الكولونيل في مدينة ليون. فوصل قطاره مبكرًا قبل وصول الكولونيل فقضى فترة بعد الظهر يتجول في أرجاء تلك المدينة المزدحمة الثقيلة الظل. وهما الآن جالسان في مطعم كان أشندن هو الذي قاد الكولونيل إليه عند وصوله، لأنه مشهور بتقديم أفضل طعام في تلك المنطقة من فرنسا. وكان المطعم مزدحمًا، لأن أهل ليون يحبون الطعام الجيد، فلا تستطيع أن تضمن إنصات الآذان لما يخرج من شفتيك. ولهذا اكتفى الاثنان بالخوض في موضوعات سطحية. وفي ختام الطعام قال الكولونيل:

ألك في كأس أخرى من البراندي؟

كلا، شكرًا.

فتناول الكولونيل الزجاجة وصبَّ لنفسه كأسًا ولأشندن مثلها، وهو يقول:

- يجب أن ينتهز الإنسان كل فرصة ممكنة للتحلل من قيود الحرب.

ووجد أشندن أن الاعتراض سيكون سخيف الوقع، فتناول كأسه وأخذ يرشف منها في بطء، وطلب الكولونيل قائمة الحساب. ومع أنه شخصية هامة، وله سلطة إعزاز أو إذلال عدد ضخم من أتباعه، وآراؤه لها وزنها عند من بيدهم مصائر الإمبراطوريات، فإنه كان يشعر دائمًا بالحرج الواضح جدًّا كلما اقتضت الحال أن يعطي هبة للخدم. فهو يخشى أن يبدو مغفلًا، إذا أعطاهم أكثر مما ينبغي بكثير. ويخشى أن يثير ازدراءهم إذا أعطى أقل مما يجب. فعندما جاء الساقي بقائمة الحساب أعطى الكولونيل أشندن بضع مئات من الفرنكات قائلًا:

- ادفع أنت الحساب. فأنا لا أفقه الأرقام الفرنسية.

ثم جاء الخادم بالقبعتين والمعطفين. وسأل أشندن:

- أتحب أن تعود الآن إلى الفندق؟

- من المستحسن ذلك.

وكان الوقت في أوائل العام لكن الجو كان دافئًا فمشيا وكل منهما يحمل معطفه فوق ذراعه، وكان أشندن يعلم أن الكولونيل يفضل أن تكون له حجرة استقبال خاصة ملحقة بحجرته فراعى ذلك عندما حجز له مكانًا في الفندق. وإلى تلك الحجرة توجه الاثنان بمجرد دخولهما الفندق المشيد على الطراز القديم. لذا كانت حجراته واسعة والأثاث ثقيلًا مصنوعًا من خشب المهوجني. وكسوة المقاعد الضخمة من القطيفة الخضراء، والجدران مزينة بمناظر من مواقع نابليون. ويتدلى من السقف شمعدان ضخم كان يستخدم للإنارة بالغاز ثم ركبت عليه مصابيح كهربائية.

واحتل أشندن مقعدين جلس على أحدهما وبسط قدميه فوق الآخر، فلما رآه الكولونيل على تلك الصورة قال:

- هذه فكرة لا بأس بها.

ثم جذب مقعدًا آخر وضع فوقه قدميه وتنهد بارتياح وسأل:

- أي حجرة هذه التي تجاورنا من هذا الجانب؟

- حجرة نومك.

- ومن الجانب الآخر؟

- بهو للمآدب.

فنهض الكولونيل وجاب أرجاء الحجرة ونظر وراء الستائر الثقيلة ثم عاد إلى مقعده، ورفع قدميه فوق المقعد الآخر، وقال:

- من الأفضل دائمًا أن يتخذ الإنسان الحيطة.

ثم نظر إلى أشندن بإمعان وقد لاحت على شفتيه الرفيعتين ابتسامة يسيرة، بيد أن العينين الشاحبتين المتقاربتين احتفظتا بما فيهما من برود فولاذي. ولا شك أن تحديق الكولونيل كان خليقًا أن يضايق أشندن لولا أنه تعوده، فأدرك أن الكولونيل يفكر في كيفية مفاتحته في الموضوع الذي يشغل ذهنه. ودام الصمت دقيقتين أو ثلاثًا. ثم قال أخيرًا:

- إنى أنتظر قدوم شخص سيحضر لمقابلتي الليلة، وقطاره يصل في الساعة العاشرة، ونظر في ساعة معصمه، ثم قال:

- وهو معروف باسم المكسيكي الأمرد.

- لماذا؟

- لأنه أمرد ولأنه مكسيكي.

- هذا تفسير مقنع للغاية.

- وسيخبرك بنفسه عن كل ما يتصل به، لأنه ثرثار، وقد التقيت به وهو في حالة إفلاس تام، ويظهر أنه كان مشتركًا في إحدى الثورات بالمكسيك واضطر للفرار وليس عليه سوى ثوبه، فر بجلده لأن ثوبه كان شيئًا لا يستحق الذكر حين قابلته. وإذا أردت أن تظفر برضاه فيجب أن تناديه دائمًا بلقب جنرال، وهو يزعم أنه كان جنرالًا في جيش هورتا، وأن الأمور لو سارت على ما يرام لأصبح وزيرًا للحربية هناك، ولا أدري ماذا من عظائم الأمور، وقد ألفيته نافعًا جدًّا لنا، ولا أكره فيه شيئًا سوى استخدامه للعطور.

- وما علاقتي أنا بموضوعه؟

- إنه مسافر إلى إيطاليا، فقد كلفته هناك بمهة شائكة، وأريد منك أن تكون بقربه، لأني لست حريصًا على ائتمانه على مبلغ كبير من المال فهو مقامر وشديد الولع بالفتيات، وأظنك جئت من جنيف بجواز سفر باسم أشندن؟

- أجل.

- لقد أحضرت لك معي جواز سفر دبلوماسيّ باسم سومرفيل وعليه تأشيرات دخول فرنسا وإيطاليا، وأظن من الأفضل أن تسافرا معًا. وهو رفيق مسلٍّ، وأعتقد أنكما يجب أن تتعارفا.

- وما هي المهمة بالضبط؟

- لم يستقر رأيي بعد على المدى الذي يستحسن أن تعرفه عن هذه المهمة.

ولم يجب أشندن. وتبادلا نظرات جامدة خالية من الارتباط، كأنهما غريبان يجلسان معًا في عربة قطار وكل منهما يسائل نفسه عن الآخر، أي صنف من الرجال عساه يكون؟

وبعد برهة قال الكولونيل:

- لو كنت في موضعك لتركت الجنرال يتحدث طول الوقت عن نفسه كما يشاء. فلن أخبره عنك أكثر من المعلومات الضرورية جدًّا. وسوف لا يتطفل عليك بأسئلة لأنه على نوع معين من التهذيب على طريقته الخاصة.

- وما هو اسمه الحقيقي؟

- أنا دائمًا أناديه مانويل، ولا أظنه يستسيغ ذلك كثيرًا. فاسمه مانويل كارمونا.

- يخيل إليَّ مما تحاشيت ذكره عنه أنه وغد عريق.

فابتسم الكولونيل بعينيه الشاحبتي الزرقة وقال:

- لا أظنني أذهب معك إلى هذا الحد. والواقع أنه لم يتعلم في مدارس محترمة ومبادئه في الرياضة وفي التعامل ليست مثل مبادئي ومبادئك. فلا أستطيع أن أترك وأنا مطمئن علبة سجائر من الذهب وهو موجود بالقرب منها. ولكنه إذا خسر أمامك نقودًا في البوكر، وكان قد سرق علبة سجائرك الذهبية فلن يتردد في رهنها كي يؤدي لك دين الشرف. ولن يُفلت أقل فرصة لإغواء زوجتك، ولكنه إذا وجدك في ضيق اقتسم معك اللقمة التي في فمه. وتجري دموعه مدرارًا على خديه إذا سمع أغنية مثل: «إننا نضمك يا أم النور». ولكنك إذا أهنت كرامته فلن يتردد في قتلك غير آسف. ويظهر أنهم في المكسيك يعتبرون مرور شخص بينك وبين شرابك إهانة كبيرة. قد أخبرني مرة أن هولنديًّا لا يعرف ذلك التقليد مرَّ بينه وبين البار فأخرج مسدسه في الحال وقتله بالرصاص!

- ولم يعاقب؟

- كلا. إذ يظهر أنه ينتمي إلى أسرة من أكبر الأسر هناك. فسُوِّيت المسألة ونشر في الصحف أن الهولندي انتحر. وهذا هو الواقع تقريبًا لأن المكسيكي الأمرد لا يقيم وزنًا كبيرًا للحياة البشرية.

فأجفل أشندن وأدرك أن رئيسه لم يقل له ذلك الكلام اعتباطًا وسكت الكولونيل برهة، ثم قال:

وما أكثر الهراء الذي قيل عن قيمة الحياة البشرية في الواقع. فالقائد في المعركة لا يعتبر الرجال أكثر من أرقام. وليكونن أبله إذا سمح لنفسه بالنظر إليهم نظرة عاطفية باعتبارهم بشرًا.

- ولكن البشر ليسوا مجرد أرقام!

- ليس هذا موضوعنا. المهم أننا تلقينا معلومات تفيد أن رجلًا يسمى قسطنطين أندريادي قادمًا من إستنبول ومعه وثائق معينة نريد الحصول عليها. وهو يوناني من أعوان أنور باشا. وأنور باشا فيه ثقة كبيرة. وقد حمَّله رسائل شفوية على درجة كبيرة من السرية والخطورة بحيث لا يمكن تسجيلها على الورق. والرجل أبحر من ميناء بيريه في اليونان فوق سفينة اسمها عتاقة وسينزل في برنديزى ليتجه إلى روما، وسيسلم الوثائق في السفارة الألمانية، وبلغ السفير رسائله الشفوية.

- فهمت.

وقد كانت إيطاليا في ذلك الوقت لم تزل على الحياد. والجبهة المعادية تبذل كل جهدها كي تبقيها على الحياد. أما الحلفاء فكانوا يبذلون كل ما في وسعهم كي ننضم إليهم.

ونحن لا نريد أن يحدث أي اضطراب بيننا وبين السلطات الإيطالية لأن ذلك قد تكون له نتائج خطرة جدًّا. ولكننا يجب أن نمنع أندريادي من الوصول إلى روما.

- بأي ثمن؟

فافترَّت شفتا الكولونيل عن ابتسامة ساخرة، وقال:

- المال ليس عقبة على كل حال في سبيلنا.

- ماذا تقترح أن نفعل؟

- لا أظنك بحاجة إلى شغل ذهنك بهذا السؤال.

- ولكن لي مخيلة خصبة.

- أريد منك أن تذهب إلى نابولي مع المكسيكي الأمرد. وهو شديد اللهفة للعودة إلى كوبا. فأصحابه فيما يظهر ينظمون هناك حركة عسكرية وهو يريد أن يكون أقرب ما يمكن من المكسيك لينزل أرضها في اللحظة المناسبة، وهو بحاجة إلى المال. وقد أحضرت مبلغًا كبيرًا من الدولارات الأمريكية معي، سأسلمه لك الليلة لتحتفظ به في جيبك. وهي مجموعة من ذات الألف دولار تسلمها للمكسيكي الأمرد في مقابل الوثائق التي يحملها أندريادي.

- وهل يدري ذلك المكسيكي ما هو مطلوب منه بالضبط؟

- بالضبط.

وفي هذه اللحظة سُمع طرق على الباب ثم فتح ووقف أمامهما المكسيكي الأمرد:

ها قد حضرت. طاب مساؤك يا كولونيل يسعدني أن أراك. فنهض الكولونيل وقال:

- هل كانت رحلتك لطيفة يا مانويل؟ هذا هو مستر سومرفيل الذي سيصحبك في السفر إلى نابولي... الجنرال كارمونا!

وشد على يد أشندن بقوة حتى كاد يصرخ:

- لك يدان من فولاذ يا جنرال.

فنظر المكسيكي إلى يديه، ثم قال:

لقد طليت أظافري اليوم ولكن الطلاء لا يعجبني.

وكانت الأظافر مقصوصة جيدًا ومطلية باللون الأحمر وتلمع كالمرايا.

ومع أن الجو لم يكن باردًا فقد كان الجنرال يرتدي معطفًا من الفراء الأستراخان الفاخر. وكلما تحرك حركة يسيرة هبت موجة من العطر فملأت أنفك. وقال الكولونيل له:

- اخلع معطفك يا جنرال وأشعل سيجارًا.

وكان المكسيكي الأمرد رجلًا طويل القامة أميل للنحول. إلا أنك تحس بما له من قوة بدنية خارقة. وبدلته الأنيقة زرقاء اللون يتدلى من صدرها منديل حريري أنيق، وفي معصمه سوار ذهبي. وملامحه أكبر من المعتاد وعيناه عسليتان لامعتان، ولكنه أمرد تمامًا. وجلده الأصفر ناعم كبشرة امرأة. وليست له حواجب ولا رموش. وفوق رأسه شعر مستعار طويل له خصلات على طريقة الفنانين. فكان منظره المتناقض مفزعًا مضحكًا سخيفًا. ولكنه يستلفت نظرك ويستهويك بغرابة منظره وأناقته.

وجلس الجنرال بعد أن رفع سرواله حتى لا يتكسر ولا ينبعج عند الركبتين. ثم قال له الكولونيل في مزاح ساخر:

- خبرنى يا مانويل: هل حطمت كثيرًا من القلوب اليوم؟

فالتفت الجنرال نحو أشندن وقال:

- إن صديقنا الفاضل الكولونيل يحسدني على نجاحي المستمر مع الجنس اللطيف. وأنا أقول له دائمًا إنه يستطيع أن يحظى بمثل نجاحي لو أنه استمع لنصائحي. فالثقة هي الشيء الوحيد الذي تحتاج إليه مع النساء. وما دمت لا تخاف الصد فثق أنك لن تجد الصد.

فقال الكولونيل:

- هراء يا مانويل. فلا بد أن تكون للمرء أساليبه الخاصة مع الفتيات. فهناك شيء في شخصك لا يستطعن مقاومته.

فضحك المكسيكي الأمرد راضيًا عن نفسه بغير مواربة. وهو يتكلم الإنجليزية بإجادة تامة، ولكن بلكنة إسبانية، وقال:

- أما وقد سألتني يا كولونيل عن عدد القلوب التي حطمتها اليوم فلا أبالي أن أخبرك أني تجاذبت حديثًا طويلًا في القطار مع امراة ضئيلة الحجم. كانت قادمه لزيارة حماتها في ليون، ولم تكن صغيرة السِّن جدًّا، وجسمها أنحف مما يروق لي في النساء. ولكنها كانت مقبولة. وقد أعانت على إزجاء ساعتين من الزمن بأسلوب لطيف.

فقال الكولونيل مغيرًا موضوع الحديث:

- والآن لنشرع في العمل.

- أنا في خدمتك يا كولونيل. وهل المستر سومرفيل رجل عسكري؟

- كلا. إنه مؤلف.

- الدنيا تتسع لشتى صنوف الخلق. وأنا سعيد بمعرفتك يا مستر سومرفيل وأستطيع أن أقص عليك حكايات كثيرة تثير اهتمامك. وأنا واثق أننا سنتآلف. فلك ظل خفيف. وأنا شديد الحساسية لخفة الظل. والحق أقول لك إنني عبارة عن حزمة من الأعصاب. فإذا جمعتني الظروف بشخص منفر ثقيل الظل انفلت زمام أعصابي!

- آمل أن نحظى برحلة لطيفة.

وعندئذ التفت المكسيكي إلى الكولونيل وقال:

- متى يصل صاحبنا إلى برنديزي؟

- موعد إبحاره من بيريه على السفينة عتاقة في اليوم الرابع عشر من الشهر. ويستحسن أن تكون في برنديزي لانتظارها.

- أنا متفق معك في هذا.

وقام الكولونيل فجلس على حرف المنضدة ويداه في جيبيه. فبدا في سترته العسكرية المشعثة العتيقة على نقيض صاحبنا المكسيكي في أناقته المفرطة، وبدأ يلقي تعليماته:

- مستر سومرفيل لا يعرف شيئًا تقريبًا عن المهمة التي عهدنا بها إليك. ولا أحب أن تخبره بأي شيء. وأفضل أن تسترشد بآرائك الخاصة وفراستك. ولديه تعليمات أن يسلمك الأموال التي تحتاج إليها في عملك. ولكن العمل نفسه من شأنك وحدك. وإذا احتجت عند الضرورة القصوى لاستشارته، فلا بأس.

- قلما أسأل أحدًا النصح. ولا آخذ أبدًا بنصح أحد.

- وإذا اضطربت الأمور فأنا واثق أنك ستُبقي مستر سومرفيل بعيدًا عن الموضوع كلية. فيجب بأي شكل ألا يزج به في مأزق.

فقال المكسيكي الأمرد بإباء وشمم:

- أنا رجل شريف يا كولونيل. وخير لي أن يمزقوني إربًا من أن أشي بأصدقائي.

- وهذا ما قلته لمستر سومرفيل عنك. وقد أصدرت إليه التعليمات أيضًا في حالة نجاحك في مهمتك نجاحًا كاملًا أن يسلمك المبلغ المتفق عليه في مقابل الأوراق التي حدثتك عنها. أما الوسيلة التي ستحصل بها على تلك الأوراق فليست من شأنه.

هذا أمر مفروغ منه، ولكن هناك موضوعًا واحدًا أحب أن أجلوه تمامًا. فأنا حريص أن يفهم مستر سومرفيل أنني لم أقبل هذه المهمة التي عهدتم بها إليَّ من أجل المال.

فقال الكولونيل بجدٍّ تام:

- هو يفهم هذا تمام الفهم.

- أنا مع الحلفاء روحًا وجسمًا، لأني لا أستطيع أن أغتفر للألمان خرقهم لحياد البلجيك، وإذا قبلت المال الذي عرضتموه عليَّ فذلك لأنني وطني مخلص قبل كل شيء. هل أستطيع أن أثق في كتمان مستر سومرفيل؟

فأومأ الكولونيل برأسه وعندئذ التفت المكسيكي إلى أشندن:

هناك حملة تجهز لتحرير وطني المنكود من أيدي الطغاة الذين يستغلونه ويخربونه. وكل بنس أتقاضاه سينفق في شراء السلاح والذخيرة. أما أنا شخصيًّا فلا حاجة بي إلى المال. فأنا جندي وأستطيع أن أعيش على لقمة

جافة وحفنة من الزيتون. وليست لي في الحياة إلا ثلاثة مشاغل تليق بالسيد المهذب: الحرب ولعب الورق والنساء. ولا يتكلف الإنسان شيئًا كي يحمل بندقيته على كتفه ويلوذ بالجبال. فالحرب عندنا حرب عصابات حقيقية لا مثل حربكم بالفرق والمدافع. وأما النساء فَيُحْبِبْنَني لشخصي بغير نظر إلى المال. أما لعب الورق فأنا أربح فيه في معظم الأحيان.

وشعر أشندن باستلطاف شديد لهذا المخلوق المتعجرف المزخرف المعطر الذي يتشدق بالتقشف. أجل هو مضحك في سخافة تفكيره ولكنه لا يوحي إليك أنه رجل يستهان به. فثقته بنفسه لا تخلو من مهابة وفخامة.

وأين حقيبتك يا مانويل؟

- تركتها في المحطة.

مستر سومرفيل يحمل جواز سفر دبلوماسيّ. ففي استطاعته أن يضم حقيبتك إلى حقيبته عند الحدود حتى لا تخضع للتفتيش.

ليس في حقيبتي إلا أشياء قليلة جدًّا، عدد من البدل وملابس داخليه وقمصان. ولكن قد يكون من المستحسن أن يتفضل مستر سومرفيل بالاهتمام بحقيبتي. فقد اشتريت اثنتي عشرة بيجامة حريرية من باريس وأخشى أن يتقاضوا عليها رسومًا.

ونظر الكولونيل إلى أشندن، وسأله قائلًا:

- وماذا عنك أنت؟

- عندي حقيبة واحدة في حجرتي.

- يحسن أن ترسلها إلى المحطة لأن قطاركما يقوم في الواحدة وعشر دقائق بعد منتصف الليل.

وكانت هذه أول مرة يسمع فيها أشندن أنه سيسافر هذه الليلة. ولكنه لم يزد على أن قال:

وهو كذلك.

ونهض الكولونيل واقفًا وهو يقول:

سآوي إلى فراشي، ولا أدري ماذا تريدان أن تصنعا في المدة الباقية.

فقال المكسيكي الأمرد:

- سأتمشى في ليون. فأنا أحب الناس. أقرضني مئة فرنك يا كولونيل من فضلك فليست معي «فكة».

فأخرج الكولونيل حافظة نقوده وأعطى الجنرال المبلغ الذي طلبه ثم التفت إلى أشندن، وسأله:

- وأنت ماذا ستصنع؟ هل ستنتظر هنا؟

- كلا. سأذهب إلى المحطة وأجلس في الاستراحة للقراءة.

- يستحسن أن تشربا كأسًا من الويسكي بالصودا قبل انصرافكما، ما رأيك في ذلك يا مانويل؟

- هذا كرم منك يا كولونيل. ولكني لا أشرب إلا الشمبانيا والبراندي.

فأمر الكولونيل بإحضار البراندي والصودا، وصب كل من أشندن والكولونيل لنفسه كأسًا، أما المكسيكي الأمرد فملأ كوب ماء من ذلك البراندي الفاخر وشربه صرفًا في جرعتين! ثم نهض واقفًا ولبس معطفه المصنوع من الفراء، ثم تناول قبعته السوداء بيسراه ومد يمناه إلى الكولونيل قائلًا:

- أتمنى لك يا كولونيل ليلة طيبة وأحلامًا سعيدة. ولست أتوقع أن نلتقي في وقت قريب.

- لا تفسد الأمور يا مانويل. وإن أفسدتها أَطبق فمك.

- قيل لي إنه في إحدى كلياتكم التي يتدرب فيها أبناء الأشراف على أن يكونوا ضباطًا في البحرية توجد حكمة مكتوبة بحروف من ذهب وهي «لا وجود لكلمة المستحيل في البحرية البريطانية». وأنا أيضًا يا كولونيل لا أعرف معنى كلمة الفشل.

- هذه كلمة لها مترادفات كثيرة على كل حال.

فأعرض الجنرال عنه وقال لأشندن وهو منصرف:

سألتقي بك في المحطة يا مستر سومرفيل.

وبعد انصرافه نظر الكولونيل إلى أشندن وهو يبتسم ابتسامته المعهودة التي تنبئ عن دهاء شديد وسأله:

- والآن ما رأيك فيه؟

- إنه مغرور كالطاووس. فهل حقًّا يلقى نجاحًا مع النساء بمنظره المرعب هذا؟ وما الذي يجعلك تثق به؟

فضحك الكولونيل وجعل يفرك راحتي يديه في حركة اغتسال وهمية:

ظننتك ستحبه. فهو شخصية طريفة. أليس كذلك؟ وأظن أنه في وسعنا أن نثق به. سأعطيك الآن تذكرتي السفر والنقود كي تنصرف لأني أريد أن أنام.

وبعد عشر دقائق كان أشندن في طريقه إلى المحطة وحقيبته الوحيدة فوق كتف حمَّال. وكان باقيًا أمامه أكثر من ساعتين فجلس في مقعد وثير بحجرة الانتظار، والإضاءة بها جيدة وشرع يطالع رواية. ولمَّا اقترب موعد وصول القطار من باريس كي يقلهما مباشرة إلى روما ولم يظهر للمكسيكي الأمرد أثر، بدأ أشندن يشعر بالقلق وخرج إلى إفريز المحطة ليبحث عنه.

وأعطيت الإشارة بقرب قدوم قطار روما السريع ولا أثر للمكسيكي الأمرد أيضًا. ووصل القطار إلى المحطة ولم يصل المكسيكي فاستولى الفزع على أشندن. فأخذ يروح ويجيء وهو يتلفت كالمجنون على غير طائل.

ولم تكن في القطار عربات نوم. فاحتل مقعدين في الدرجة الأولى ثم وقف في النافذة يجيل نظره في الناس ثم ينظر إلى ساعة المحطة. ولمَّا كان السفر من غير رفيقه لا فائدة منه فقد قرر أشندن أن يغادر القطار بحقيبته بمجرد صدور الإشارة للقطار بالتحرك.

وبقيت ثلاث دقائق. ثم دقيقتان. ثم دقيقة، وأصبح إفريز المحطة خاليًا تقريبًا. وإذا به يرى المكسيكي الأمرد قادمًا يتبعه حمالان معهما حقائبه. وفي صحبته رجل بدين. وهو يمشي متبخترًا. ولمح أشندن فلوح له بيده، ثم قال بصفاقه:

- أهذا أنت أيها العزيز؟ لقد كنت أتساءل ماذا حدث لك؟

- يا إلهي! أسرع يا رجل وإلا فاتك القطار!

- اطمئن. فأنا لا يفوتني القطار أبدًا. هل حصلت على مقعدين طيبين؟ إن ناظر المحطة في الراحة، وهذا نائبه

ورفع الرجل البدين قبعته تحية لأشندن. ثم استطرد المكسيكي:

- ولكن هذه عربة عادية. وأخشى أني لا أستطيع أن أسافر فيها. ولا شك أنك تستطيع أن تدبر لي شيئًا خيرًا من هذا أيها العزيز.

فأسرع نائب الناظر البدين بالانحناء، قائلًا:

- بالطبع يا سيدي الجنرال. سأدبر لك صالونًا خاصًّا.

وأخذهما الرجل إلى صالون خاص يصلح مقعداه الكبيران سريرين. وأبدى المكسيكي ارتياحه وسمح للحمالين بترتيب حقائبه ثم مد يده فصافح نائب الناظر، وهو يقول له:

- لن أنساك. وفي أول فرصة أرى فيها الوزير سأحدثه عن اهتمامك براحتي.

- هذا كرم منك يا جنرال. وسأكون مدينًا لك بالشكر ونفخ الرجل في صفارته فقام القطار. وعندئذ انفجر أشندن:

- لماذا تأخرت حتى الثانية الأخيرة؟ ماذا يكون من أمرنا لو أننا لم ندرك هذا القطار؟

- يا صاح. لم يكن هناك أقل احتمال لفوات القطار. فعند وصولي من باريس هذا المساء قلت لناظر المحطة إنني الجنرال كارمونا القائد العام للقوات المكسيكية المسلحة. وإنني سأقضي هنا في ليون بضع ساعات أعقد فيها مؤتمرًا مع ماريشال إنجليزي. وطلبت منه أن يحجز لي القطار إذا تأخرت بضع دقائق. ولمحت إلى أن حكومتي قد تفكر في الإنعام عليه بوسام. ولما كنت قد مررت بليون من قبل وأعجبتني فتياتها وإن كنَّ لسن كفتيات باريس، فقد أحببت أن أستمتع بهن إلى آخر دقيقة. والآن هل لك في جرعة من البراندي قبل أن تنام؟

- كلا أشكرك.

- كما تحب. أنا دائمًا أشرب كوبًا من البراندي قبل النوم كي يهدئ أعصابي، فأنا حزمة من الأعصاب كما قلت لك.

وفتح إحدى الحقائب وأخرج منها زجاجة رفعها إلى فمه وشرب منها جرعة كبيرة ثم مسح شفتيه بظهر يده وأشعل سيجارة وخلع حذاءه ورقد، فأطفأ أشندن المصباح الكبير وترك نورًا خافتًا. وساد الصمت لحظة، ثم قال المكسيكي الأمرد:

لم يستقر رأيي حتى الآن أيهما أمتع لي: أن أنام وعلى فمي قبلات امرأة حسناء أم سيجارة؟ هل ذهبت إلى المكسيك؟ سأحدثك عن المكسيك غدًا. طابت ليلتك.

وسرعان ما سمع أشندن تنفسه الثقيل المنتظم فأدرك أنه نام. وبعد قليل أغفى أشندن. ثم بعد برهة من الزمن استيقظ على وقوف القطار وقوفًا مفاجئًا، وفي لمح البصر كان المكسيكي واقفًا ومسدسه في يده، وهو يصيح:

- ما هذا؟

- لا شيء. ربما كانت إشارة بأن الطريق مشغول.

فتهاوى المكسيكي على فراشه وأضاء أشندن النور، وقال:

- إنك تستيقظ بسرعة رغم نومك العميق.

- لا بد من هذا في مهنتي.

وكان على لسان أشندن أن يسأله عن هذه المهنة أهي القتل أم التآمر أم قيادة الجيوش. ولكنه آثر السلامة. وفتح الجنرال حقيبته وأخرج الزجاجة. وبعد أن عزم على أشندن بجرعة ورفضها، رفع الزجاجة إلى فمه وصب منها في حلقه كمية كبيرة من البراندي ثم أشعل سيجارة وهو يتنهد، ودهش أشندن لأنه على الرغم من كميات الشراب الضخمة كان يبدو مفيقًا تمامًا، لا يبدو عليه أنه شرب طول الليل سوى عصير الليمون!

وبعد قيام القطار نام أشندن. وعندما استيقظ في الصباح وتقلب في فراشه وجد المكسيكي مستيقظًا يدخن سيجارة. والأرض تحت قدمه مفروشة بأعقاب السجائر وقد تلبد جو الغرفة بالدخان الأزرق. وكان قد رجا أشندن أول الليل ألا يفتح النافذة بحجة أن هواء الليل خطر على الصحة. ونهض الرجل إلى الحوض الملحق بالديوان فجعل يغسل أسنانه ويتغرغر بصوت عالٍ. ثم أخرج من حقيبته زجاجة كولونيا صب منها قليلًا فوق منشفة وجعل يدلك بها وجهه ويديه. تم تناول مشطًا ونسق به شعره المستعار في عناية. تم استخرج زجاجة من العطر ذات مضخة رشاشة وضمخ بها قميصه ومنديله، ثم التفت إلى أشندن:

- أنا الآن على أتم استعداد لمجابهة العالم أجمع. استعمل لغسيل وجهك هذه الكولونيا فهي من أحسن منتجات باريس

- شكرًا لك. لا أحتاج لغسيل وجهي إلا للماء والصابون.

- ماء؟ أنا لا أستعمل الماء إلا في الاستحمام. فهو يفسد بشرة الوجه.

وقرب الحدود تذكر أشندن المسدس الذي رآه عند وقوف القطار في يد الجنرال فأخذه منه لأنه بفضل جواز السفر الدبلوماسي معفى من التفتيش، وعندئذ قال الجنرال:

- سأعطيك أيضًا مديتي. فالمدية هي سلاحي المفضل. لأنها سلاح أنيق. أما المسدس فيستطيع أن يستعمله أي أبله.

وبحركات خاطفة خيل لأشندن أنها حركة واحدة فك أزرار صداره وأخرج من حزامه مدية طويلة فظيعة الشكل قدمها إلى أشندن فخورًا وهو يقول:

إنها من خير أنواع الصلب في العالم. شفرتها حادة كشفرة الموس. وقوية كالخنجر. تستطيع بها أن تقطع ورقة سيجارة أو تسقط شجرة بلوط على السواء، وتبدو وهي مقفلة كمدية تلاميذ المدارس.

- هل معك أسلحة أخرى؟

ليس سوى يدي. ولكن رجال الجمرك لن يرتابوا فيهما.

وعندئذ تذكر أشندن قوة قبضته عندما صافحه أول مرة فسرت الرعدة في جسده. وكانتا يدين عريضتين طويلتين ناعمتين. لا أثر على ظهريهما ولا على المعصمين للشعر. أما الأظافر فمقصوصة قصًّا مدببًا أنيقًا ومطلية باللون اللامع، ومع ذلك ففيها شيء مخيف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس
المرأة السمراء

وعند وقوف القطار للتفتيش في الحدود تجاهل كل من الجنرال كارمونا وأشندن صاحبه، وبعد استئناف السير أعاد أشندن إلى المكسيكي الأمرد المسدس والمدية. فتنهد الجنرال قائلًا:

- الآن أشعر بمزيد من الارتياح. وما رأيك في أن نلعب الورق لتمضية الوقت؟

- لا مانع عندي.

ففتح المكسيكي الأمرد حقيبته مرة أخرى واستخرج من أحد أركانها أوراق اللعب. وكان الورق الذي بيد أشندن جيدًا ولكن الجنرال كان يكسب دائمًا. وفتح أشندن عينيه تمامًا لأنه اعتقد أن خصمه من الجائز أن يعمد إلى الغش، ولكنه لم يكتشف شيئًا يدل على ذلك. واستمرت خسارته دورة بعد دورة. وتكدست هذه الخسائر إلى أن قاربت الألف فرنك، وهو مبلغ كان يعتبر حينئذ غير صغير. وكان الجنرال يدخن باستمرار سجائر لا تحصى يلفها بنفسه بحركة من إصبعه، ولعقة من لسانه، في سرعة لا يتصورها العقل. وأخيرًا استلقى في مقعده وسأله:

- بهذه المناسبة يا صديقي، هل تدفع الحكومة البريطانية لك خسائرك في لعب الورق حين تكون في مهمة رسمية؟

فقال أشندن باستغراب:

- كلا بالطبع.

وعندئذ قال الجنرال بوقار:

- إذن في هذه الحالة أعتقد أنك خسرت ما فيه الكفاية. ولو أن خسائرك كانت تضاف إلى حساب نفقاتك الرسمية لاقترحت عليك أن تستمر في اللعب إلى أن نبلغ روما. ولكنك شخص ظريف خفيف الظل ولا أريد أن أربح المزيد من نقودك الخاصة.

ثم جمع أوراق اللعب ونحاها جانبًا. وأخرج أشندن حافظة نقوده واستخرج منها بضعة أوراق مالية قدمها إلى المكسيكي فأحصاها ثم وضعها بعنايته المعهودة في حافظته. ومال إلى الإمام وربت على ركبة أشندن:

- إني أحبك فأنت متواضع وغير متكلف وليست فيك عجرفة مواطنيك. وأنا واثق أنك ستتقبل نصيحتي لك بالروح التي أملتها عليَّ. لا تلعب الورق بعد اليوم مع أشخاص لا تعرفهم!

فشعر أشندن بالخزي ولعل ذلك ما ظهر على وجهه فقد تناول المكسيكي يده وهتف قائلًا:

- هل جرحت شعورك ياعزيزي؟ ما كنت لأقدم على ذلك لأي سبب من الأسباب. وأنا أشهد الحق أنك لا تلعب الورق أسوأ من معظم اللاعبين. فليس الذنب في الخسارة ذنبك. ولو أننا كنا سنبقى مدة أطول معًا لعلمتك كيف تكسب في اللعب. فالإنسان إنما يلعب الورق كي يكسب مالًا، فليس للخسارة معنى.

فضحك أشندن ضحكة فجة، وقال:

- كنت أظن أنه في الحب والحرب فقط تكون جميع الوسائل جائزة!

فضحك الجنرال وقال:

- يسعدني أن أراك تبتسم، فهكذا يجب أن يتقبل الإنسان الخسارة. وإني أرى الآن أنك رجل ذو عقل وذو فطنة، وتحسن تقبل الأمور بصدر رحب، ولذا ستبلغ في الحياة مبلغًا حسنًا. فهذه أدوات الوصول الصالح. وعندما أعود إلى المكسيك، وأسترد ممتلكاتي وضياعي، يجب أن تأتي للإقامة معي هناك. وسوف أستضيفك في مستوى ملكي، فتركب أفضل جيادي وسنذهب إلى مصارعة الثيران معًا، وإذا راقت في عينيك فتيات فما عليك إلا أن تقول كلمة واحدة حتى يكنَّ طوع أمرك!

وشرع الجنرال يروي لأشندن أمر الممتلكات الزراعية الشاسعة والحصون والمناجم التي يملكها في المكسيك والتي صادرها أعداؤه. وحدثه عن الأبهة الإقطاعية التي كان يعيش فيها. ولم يكترث أشندن هل كان ما يقوله الجنرال صدقًا أم كذبًا. فحسبه أن عباراته الرنانة كانت مثقلة بثمار الخيال ومعطرة بأريج الأسطورة. كانت صورة رومانسية رائعة، لأنه في الواقع كان يصف حياة باذخة، كأنما تنتمي إلى عصر آخر من عصور البشرية. وكانت إشارات يديه من البلاغة في التعبير بحيث تمد أمام عين العقل آفاقًا بأسرها من المراعي الخضر والرياض اليانعة والجبال التي تغطي سفوحها الغابات وتغطي قممها الثلوج، حتى إذا جنحت الشمس للمغيب امتلأت الربى بقطعان لا يحصيها العدد من الماشية عائدة إلى المذاود. وفي الليالي المقمرة يتهادى النسيم معطرًا بأريج الأرض الخصبة، وغناء المترنمين على نغمات الجيتار يسكر أعطاف الليل..

- ... كل هذا خسرته يا صاحبي. خسرت كل شيء وفررت بحياتي إلى باريس. وهناك اضطررت أن أكسب قوتي بإعطاء دروس في اللغة الإسبانية للأمريكيين، أو بمصاحبتهم لأدلهم على أماكن المتعة واللهو في أزقة باريس.

وإذا أنا الذي كنت أنفق ألف «دوروس» على غدائي أو عشائي، قد بت أستجدي خبزي كأنني هندي أحمر أعمى. وأنا الذي كنت أجد لذتي في تزيين معصم امرأة حسناء بسوار من الماس الثمين، اضطرتني الحاجة إلى قبول بذلة جديدة من حيزبون أكبر من أمي. ولكن صبرًا أيها الصديق. فالعسر لا يدوم، وقد حان الوقت الذي نضرب فيه ضربتنا.

ثم تناول أوراق اللعب وأخذ يرتبها في صفوف وهو يقول:

- فلنرَ ماذا تقول الأوراق. فالورق لا يكذب. آه لو أنني آمنت بالورق إيمانًا كاملًا كما ينبغي! إذن لتجنبت الإقدام على العمل الوحيد في حياتي الذي ثقلت وطأته على نفسي. إن ضميري مستريح فقد فعلت ما كان أي رجل حريًّا أن يفعله في مثل ظروفي، ولكني آسف لأن الضرورة ألجأتني إلى إتيان عمل كنت أتمنى لو تجنبته! لقد حذرني الورق وأنذرني، إني لا أنكر ذلك فقد كان التحذير واضحًا قاطعًا. أظهر لي الورق الحب وامرأة سمراء والخطر والخيانة والموت في مجموعة واحدة. وكان ذلك واضحًا أراه كما أرى الأنف الذي في وجهك. وأي أبله كان حريًّا أن يدرك معنى ذلك النذير. فما بالك وأنا الرجل الذي تعود طول حياته على استعمال الورق. فلا يكاد يوجد عمل أقدم عليه من غير أن أستشير الورق. فلا عذر لي... إنكم يا أبناء الشعوب الشمالية لا تعرفون ما هو المعنى الحقيقي للحب. لا تعرفون كيف يذود النوم عن العين، وكيف يذود الشهية للطعام حتى يذوي المرء كأنه صريع الحمى. لا تعرفون كيف يستولي الجنون على المحب حتى لا يبالي بشيء في سبيل إطفاء رغبته الجامحة. ورجل مثلي حريٌّ أن يقدم على أية حماقة أو أية جريمة إذا أحب. أجل يا سنيور! وخليق أيضًا بدافع الحب أن يقدم على أعمال البطولة. فأينما يوجهه الحب يتجه علوًّا أو دنوًّا. يجتاز جبالًا أعلى من إفرست، ويعبر بحارًا أعتى من الأطلنطي. يمسي إلهًا أو شيطانًا كيفما يشاء له الحب. وكانت النساء دائمًا آفتي!

ومرة أخرى أخذ المكسيكي الأمرد ينظر في الأوراق يبسطها وينسقها. يتناول بعضًا ويترك بعضًا آخر.

لقد أحبتني أعداد لا تحصى من النساء. ولست أقول ذلك للتفاخر، وليس عندي تفسير لذلك، فهي مسألة واقع وكفى. اذهب إلى مدينة المكسيك وسل الناس هناك عما يعرفون عن مانويل كارمونا وغزواته النسوية. سلهم كم امرأة استطاعت أن تصمد وتقاوم مانويل كارمونا!

وكان أشندن يرقبه وقد قطب حاجبيه قليلًا. فهو لا يدري هل المكسيكي الأمرد مقتنع فعلًا بسحره الذي لا يقاوم، أم أنه ماهر في الكذب...

- هناك شيء اسمه القدر... وما من قوة على الأرض تستطيع ان تمحوه أو تغيره. وأنا رجل شجاع، ومع ذلك تملؤني الرهبة أمام الورق الذي يحمل لي نذير القدر...

وكانت قد بقيت في يده أربع ورقات مقلوبة جعل يتحسس ظهورها ولا يجسر على كشفها وقد ارتسم على وجهه قلق لا يحاول أن يخفيه.

وعاد يقول:

هذه الأوراق الأربع تحمل كلمة القدر. وأنا أرتعد أمامها.

وفجأة تغير وجهه وسأل أشندن:

- ماذا كنت أقول لك؟

- كنت تقول لي إن النساء يجدن سحرك لا يقاوم.

فعلًا. ولكني التقيت بامرأة واحدة قاومتني. رأيتها أول مرة في بيت من بيوت اللهو في مدينة المكسيك. كانت تهبط السلم وأنا أصعده. ولم تكن جميلة للغاية، فقد حظيت بمئات من النساء أجمل منها، ولكن كان فيها شيء ما استلفت نظري. فقلت للمرأة العجوز التي تدير ذلك البيت أن تبعث بها إليَّ. وهذه المرأة العجوز ستعرفها حتمًا عندما تذهب إلى مدينة المكسيك. فهي أشهر مديرات بيوت اللهو ويسمونها هناك المركيزة. وقالت لي المركيزة إن هذه الفتاة ليست من المقيمات في الدار، ولكنها عضو منتسبة تأتي بين الحين والحين لمهمات خاصة، وتنصرف إلى بيتها. فطلبت منها أن تستدعيها في المساء التالي ولا تسمح لها بالانصراف إلى أن أحضر. ولكني في الليلة التالية تأخرت، وعندما وصلت أخبرتني المركيزة أن الفتاة قالت لها إنها لم تتعود الانتظار وانصرفت. وأنا رجل متسامح لا أبالي أن تتدلل المرأة في بعض الأحيان، فهذا جزء من سحرهن الخاص. ولذا ضحكت وأرسلت إلى الفتاة ورقة من ذات المئة دوروس، ووعدت أن أكون في الموعد المحدد بالضبط في اليوم التالي. ولكن عندما ذهبت مبكرًا في اليوم التالي ردت إليَّ المركيزة المئة دوروس، وقالت لي إن الفتاة لا تشعر نحوي بميل. فضحكت من وقاحتها، وخلعت من إصبعي خاتمًا ماسيًّا، وقلت للمركيزة أن تعطيها الخاتم وترى هل سيتغير رأيها فيَّ أم لا. وفي الصباح أتتني المركيزة مقابل خاتمي الماسي بوردة حمراء، فلم أدر هل أضحك أم أغضب. وأنا لست متعودًا على الاستهانة بعواطفي. ولا أتردد في إنفاق المال، فما نفع المال ما لم نبعثره على النساء الحسان؟ وقلت للمركيزة أن تذهب إلى الفتاة وتخبرها أني سأعطيها ألف دوروس إذا تعشت معي تلك الليلة وسرعان ما عادت العجوز بجواب الفتاة أنها مستعدة للحضور على شرط أن أسمح لها بالعودة

إلى بيتها بعد انتهاء العشاء مباشرة وقبلت الشرط وأنا أهز كتفي لأني لم أعتقد أنها جادة. وظننت أنها تقول ذلك كي تزيد من رغبتي فيها. وحضرت الفتاة لتناول العشاء في داري. هل قلت لك إنها لم تكن جميلة؟ لا تصدقني! لقد كانت أجمل وأفتن امراة قابلتها في حياتي. سحرتني. كانت فاتنة ظريفة حاضرة البديهة، لها كل سحر الأندلسيات. كانت جديرة أن تعبد، وسألتها لماذا استهانت بي على تلك الصورة؟ فضحكت هازئة ولم تجب. وحاولت استمالتها وبذلت في ذلك غاية جهدي. ولكن ما أن انتهينا من العشاء حتى نهضت من مقعدها قائمة وألقت عليَّ تحية المساء إيذانًا بالانصراف. ففغرت فمي وسألتها إلى أين هي ذاهبة؟ فقالت إنني وعدت بأن أتركها تنصرف بعد العشاء مباشرة. وقد وثقت بي لأني رجل شريف يجدر به أن يفي بوعده. وأخذت أقنعها وأتوسل اليها، ثم ثرت ولكن الفتاة لم تقبل أن تحلني من وعدي. وكل ما ظفرت به هو أن تعدني بالحضور في الليلة التالية لتتعشى معي بنفس الشروط. وظللت سبعة أيام أعطيها كل يوم ألف دوروس كي تتعشى معي، وفي كل ليلة كنت أنتظرها وقلبي في حلقي. وأنا قلق متوجس كأنني عاشق مبتدئ، أو مصارع ثيران يبرز أمام الجمهور للمرة الأولى. وفي كل ليلة كانت تلاعبني وتعبث بي، وتبدي، لي من فنونها ودلالها ما يشعل جنوني حتى بت أحبها حبًّا لا حد له. لم أحب مثله أحدًا من قبل ولا من بعد. لم أعد أفكر في شيء سواها وأهملت كل شيء وأنا الرجل الوطني الذي يحب بلاده. وكنا مجموعة صغيرة من الرجال استقر رأينا على الإطاحة بالطغيان الذي يسود وطننا. وكان يغيظنا أن جميع الوظائف الدسمة كانت لأصهار الطغاة وأقاربهم. وكنا نؤدي الضرائب مثل عامة الشعب، ولا يقام لنسبنا العريق وزن، وكنا نملك المال والرجال، فأحكمنا تدبيرنا، وتأهبنا لنضرب ضربتنا. وكان عليَّ في تلك الفترة أن أعقد الاجتماعات وأدبر السلاح والذخيرة، وأوصل الأوامر إلى رجالنا السريين. ولكني كنت مجنونًا بهذه المرأة فلم أستطع أن أحسن شيئًا من تلك الأمور. وكان من المفروض أن أسخط عليها لسخريتها مني. أنا الذي لم أجرب في حياتي الحرمان من شيء اشتهيته. ولم أصدق أنها تتمنع عليَّ لتزيد رغبتي اشتعالًا، بل صدقت أنها كانت صادقة عندما قالت لي إنها لن تمنحني نفسها إلا إذا تأكدت من أنها تحبني! وكانت تقول إن عليَّ أن أجعلها تحبني. كنت أظنها ملكًا كريمًا، وكنت مستعدًّا للانتظار والصبر، وأنا واثق أن شدة حبي ستنتهي بإشعال الجذوة في قلبها. وأخيرًا... أخيرًا جدًّا قالت لي إنها أحبتني. فكان انفعالي بذلك النبأ مروعًا، حتى خيل إليَّ أنني سأخر صريعًا! كدت أجن من الفرح! وكنت مستعدًّا أن أنزل لها عن كل ما أملكه في الدنيا. كنت قمينًا أن أنتزع النجوم من السماء لتزين بها شعرها. كنت أريد أن أفعل شيئًا كي أبرهن لها على تجاوز حبي جميع الحدود. كنت أريد أن أفعل المستحيل الذي لا يتصوره عقل، كنت أريد أن أعطيها نفسي وروحي وشرفي وكل شيء. لذلك وهي راقدة تلك الليلة

بين ذراعي أخبرتها بمؤامرتنا وأشخاصنا الحقيقية وموعد التنفيذ. وشعرت بجسمها يتصلب من التيقظ والانتباه وهي تسمع ما أقول. ثم شعرت بكفها باردة جافة، فاستولى عليَّ الشك وتذكرت على الفور ما أنذرني به الورق من اجتماع الحب وامرأة سمراء والخطر والخيانة والموت. والتصقت بصدري، وقالت لي إنها تفزع من سماع تلك الأمور، ثم سألتني إن كان فلان وفلان من بين المتآمرين. وأجبتها لأني أردت أن أتحقق من ظني. وبدهاء لا حد له جعلت بين القبلات تستخلص مني التفاصيل. حتى أصبحت متأكدًا كتأكدي من جلوسك أمامي أنها جاسوسة من رئيس الجمهورية. وأنها مكلفة بالاستيلاء على لبي وها هي ذي الآن قد استخلصت مني جميع أسرارنا. لقد باتت حياتنا جميعًا بين يديها وأيقنت أنها إن غادرت هذه الغرفة فسوف نقتل جميعًا قبل مضي أربع وعشرين ساعة. كنت أحبها، ولن تستطيع الكلمات أن تصور لك عذاب الرغبة التي كان يحترق بها فؤادي. وأن حبًّا كذلك الحب لا لذة فيه. إنه ألم. ألم رائع يسمو فوق كل لذة. إنه ذلك القلق القدسي الذي يتحدث عنه القديسون عندما تستولي عليهم النشوة السماوية وأدركت أنها ينبغي ألا تترك هذه الغرفة حية، وخشيت إن تباطأت في التنفيذ أن تخونني شجاعتي... وسمعتها تقول: «سأنام الآن». فقلت لها:نامي يا يمامتي». فقالت، وهي تقبلني: «يا حبة فؤادى ومهجتي وحياتي». وكانت هذه آخر كلمات نطقت بها إذ سرعان ما أغمضت عينيها وبعد قليل أدركت من تنفسها المنتظم الذي يعلو به صدرها الناضج كفاكهة البستان ويهبط لصق قلبي أنها نامت. كنت أحبها ولا أطيق أن تتألم. أجل إنها جاسوسة، ولكن قلبي أمرني أن أجنبها هول ما استوجبته على نفسها، ومن العجيب أنني لم أشعر بالغضب لأنها خانتني، ولا بالكراهية لوضاعة فعلتها. كل ما شعرت به أن روحي تسودها الظلمة الحالكة، وأوشكت أن أنفجر باكيًا رحمة بها، وأنا أجذب ذراعي برفق شديد من حول خصرها. ونهضت معتمدًا على يدي ونظرت إلى وجهها. ولكنها كانت جميلة جمالًا مفرطا يعتصر القلب فأشحت بوجهي بعيدًا وأنا أغمد مديتي بكل قوتي في نحرها البديع. ومن غير أن تستيقظ انتقلت سريعًا من النوم الأصغر إلى النوم الأكبر...

وتوقف المكسيكي الأمرد عن الكلام وعاد يحدق إلى الأوراق الأربع المقلوبة وهو لا يجسر على الكشف عن وجوهها:

- كان كل ذلك في الورق. فلماذا لم أنتفع بالنذير؟ سوف لا أكشف عن هذه الأوراق، عليها اللعنة؟

وبحركة عنيفة من يده أطاح بالأوراق إلى الأرض واضطجع في مقعده ولف لنفسه سيجارة، وهو يقول:

- ومع أنني مفكر حر، فإنني دفعت مالًا كثيرًا لإقامة الصلوات على روحها في جميع الكنائس التي أعرفها

وجذب من سيجارته نفسًا عميقًا ثم هز كتفيه، وقال:

قال لي الكولونيل إنك كاتب. ماذا تكتب؟

- أكتب قصصًا.

- قصصًا بوليسية؟

- كلا.

- ولم لا؟ إنها القصص الوحيدة التي أطالعها، ولو كنت كاتبًا لما كتبت إلا القصص البوليسية.

- ربما لأنها شاقة جدًّا في التأليف.

وغيَّر أشندن مجرى الحديث وأخذ يتكلم مع المكسيكي عن مهمتهما. فهما سيفترقان عند روما ليتوجه المكسيكي إلى برنديزي ويتوجه أشندن إلى نابولي وأراد أشندن أن يعطي الجنرال رقم حجرته في فندق بلفاست الذي سينزل به كي يصعد إلى الحجرة مباشرة عند اللزوم من غير أن يسأل عامل الاستقبال. ولكنه بعد تفكير لم يعطه رقم الحجرة بل جعله يكتب بخط يده عنوانه في برنديزي على مظروف. ثم كتب أشندن رقم الحجرة في قصاصة من الورق وأرسل الخطاب بالبريد كي يتسلمه الجنرال من شباك البريد في برنديزي.

وهز الجنرال كتفيه، وقال:

- يالها من احتياطات أطفال، فليس هناك أدنى مجازفة. وثق أنه مهما كانت النتائج فلن يصيبك أذى.

- ليست هذه المهمة مما تعودت أن أقوم به، ولكني أنفذ تعليمات الكولونيل.

- ليكن. ولكني أردت أن أزيد في طمأنينتك. ويجب أن تشعر أنك بأمان من كل سوء كأنك تتنزه على شاطىء التيمز.

وأخيرًا عندما افترق الاثنان في روما ووجد أشندن نفسه وحده في صالون القطار الذاهب إلى نابولي زفر زفرة عميقة وشعر بالارتياح. وسره أن يتخلص من ذلك الثرثار القبيح الشكل الواسع الخيال. وذهب ذلك الرجل إلى برنديزي ليقابل قسطنطين أندريادي. وسرت الرجفة في جسم أشندن. فإن صح ولو نصف ما حدثه به الجنرال عن نفسه، فالجاسوس اليوناني في عداد

الأموات منذ الآن. وكان من العسير على أشندن أن يتصور ذلك اليوناني وهو يعبر بحر الأدرياتيك غافلاً عما ينتظره وحاملًا تلك الوثائق السرية الخطيرة.

ولكنها الحرب. والبلهاء وحدهم هم الذين يخيل إليهم أنها يمكن أن تكسب بالوسائل الشريفة والمبادئ النظيفة وحدها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس
نتيجة غير متوقعة

عندما وصل أشندن إلى نابولي اتخذ لنفسه حجرة في الفندق، وكتب رقمها فوق قصاصة ورق وأرسلها داخل المظروف الذي كتب عليه المكسيكي الأمرد عنوانه. وبعد ذلك توجه إلى القنصلية البريطانية لأن الكولونيل كان قد رتب الأمور بحيث يرسل إليه عن طريق القنصلية أية تعليمات تعنُّ له. وتبين لأشندن أنهم يعلمون بقدومه، وأن كل شيء قد أعدت له أهبته على خير وجه، وعندئذ أخلى ذهنه من هذه المسائل واستعد كي يتمتع بمدة إقامته في نابولي على أحسن وجه.

وفي الجنوب من إيطاليا كان الربيع قد أوغل فصارت الشمس شديدة الحرارة في شوارع المدينة المزدحمة. وكان أشندن يعرف نابولي معرفة جيدة فكان ميدان القديس فرديناندو وميدان الاقتراع والكنيسة الجميلة القريبة من هناك تثير في نفسه ذكريات حلوة.

وجعل يتمهل عند نواصي الشوارع، وينظر إلى الحارات الضيقة التي ترقى بالسائر فيها الجبل رقيًّا عنيفًا، وعلى جانبيها البيوت العالية وقد علقت فيها الثياب المغسولة لتجف. وجعل يتلكأ في مشيته على الشاطئ وهو يحملق في البحر الأزرق وقد ارتسمت على أفقه البعيد مدينة كابري بألوان باهتة. وأخيرًا أفضى به المسير إلى قصر عتيق متهدم قضى فيه وهو طفل ساعات ممتعة، ثم ركب عربة يجرها حصان واحد هزيل وكر راجعًا إلى فندقه.

وظل أشندن يعيش على هذا النمط المتراخي الفارغ ثلاثة أيام. فكان لا يفعل شيئًا منذ الصباح حتى الليل سوى التجول على غير هدى، والنظر لا بعين السائح المتعجبة، ولا بعين الكاتب المتفحصة، بل بعين المتشرد الذي لايعنيه من هموم الدنيا شيء. وتردد على المتحف ليرى روائع التماثيل والصور. وألمَّ طويلا بكنيسة القديسة كيارا لأنه كان يعشق تلك الكنيسة بصفة خاصة.

وفي الصباح الرابع فرغ أشندن من حمامه وأخذ يجفف جسمه، وإذا بالباب يفتح بسرعة ويندفع إلى داخل الحجرة رجل. فصاح أشندن:

- ماذا تريد؟

- على رسلك. ألا تعرفني؟

- يا إلهي! إنه المكسيكي! ماذا فعلت بنفسك؟

وكان المكسيكي قد استبدل بشعره المستعار شعرًا أسود قصيرًا فتغير منظره كل التغير وإن ظل شكله على العموم غريبًا، ولكن بصورة مختلفة

عن ذي قبل. وكان يرتدي بذلة رمادية عتيقة.

- سوف لا أستطيع البقاء إلا دقيقة واحدة، لأنه يحلق ذقنه. فشعر أشندن بخديه يحمران فجأة وسأله:

- هل وجدته إذن؟

لم يكن ذلك عسيرًا. لأنه كان اليوناني الوحيد بين ركاب السفينة. وقد صعدت إلى ظهرها عندما ألقت مراسيها وجعلت أسأل عن صديق ركبها من بيريه زعمت اسمه جورج ديوجينيدس وأظهرت دهشة شديدة لعدم حضوره وهكذا دخلت في حديث مع أندريادي. وهو مسافر تحت اسم مستعار إذ سمى نفسه لومباردوس. وقد تبعته واقتفيت أثره بعد نزوله إلى البر. فهل تدري ما هو أول شيء فعله؟ لقد ذهب إلى دكان حلاق وحلق لحيته. فما رأيك في ذلك؟

- لا شيء، فأي شخص يستطيع أن يحلق لحيته.

- ليس هذا ما أعتقده. لقد أراد أن يغير سحنته. إنه ماكر. وأنا شديد الإعجاب بالألمان لأنهم لا يتركون شيئًا للصدف. وقد أصدروا إليه تعليمات مفصلة، ولكني سأحدثك عن هذا بعد قليل.

- ولكنك أنت أيضًا غيرت سحنتك.

- إنه الشعر. أليس كذلك؟

- ما كنت لأعرفك!

- يجب على الإنسان أن يلتزم الحيطة دائمًا. لقد أصبحت أنا وهو صديقين حميمين. لأنه كان قد قرر قضاء اليوم في برنديزي وهو لا يستطيع التخاطب باللغة الإيطالية. وكان مسرورًا جدًّا لوجودي بجانبه. ثم بعد سهرة لطيفة في برنديزي ركبنا القطار معًا. ولما وصلنا إلى نابولي جئت به إلى هنا. إلى هذا الفندق، وهو يقول إنه سيسافر إلى روما غدًا. ولكني لن أدعه يغيب عن ناظري. فأنا لا أود أن يروغ من يدي. وقد أبدى رغبة في مشاهدة ملاهي نابولي ومعالمها. فعرضت عليه أن أصحبه وأريه كل ما يستحق المشاهدة فيها.

- ولماذا لا يذهب إلى روما اليوم؟

- هذا جزء من القصة. فهو يدعي أنه رجل أعمال يوناني جمع ثروة طائلة في مدة الحرب. ويقول إنه كان يملك باخرتين ساحليتين فباعهما. وهو الآن ينوي الذهاب إلى باريس كي يتمتع ويلهو، فقد ظل طول عمره يتلهف على باريس، إلى أن سنحت له الفرصة أخيرًا. وهو رجل كتوم بذلت جهدي في استدراجه للكلام، فقلت له إنني إسباني وإني ذهبت إلى برنديزي كي أنظم اتصالات

سرية مع تركيا لتهريب معدات حربية، فأصغى لما أقول، وظهر عليه الاهتمام، ولكنه لم يقل شيئًا وبطبيعة الحال لم أجد من الحكمة أن أدفعه إلى الكلام.

- والوثائق؟

- يحملها معه.

وكيف عرفت ذلك؟

- إنه ليس شديد الحرص على جيوبه. ولكنه بين حين وآخر يتحسس خاصرته. فالوثائق إما أن تكون في حزام داخلي أو في بطانة سترته.

- ولكن لماذا بحق الشيطان أتيت به إلى هذا الفندق بالذات؟

- ظننت أن ذلك يكون أفضل. لأننا قد نحتاج إلى تفتيش أمتعته.

- وهل أنت مقيم هنا أيضًا؟

- كلا، فلست أبله إلى هذا الحد. لقد قلت له إنني ذاهب إلى روما بقطار الليل المتأخر ولهذا لا أحتاج إلى حجز غرفة. والآن يجب أن أذهب لأني وعدته أن أقابله خارج دكان الحلاق بعد ربع ساعة.

- وهو كذلك.

- وأين أستطيع أن أجدك الليلة إذا احتجت إليك؟

فنظر أشندن إلى المكسيكي الأمرد برهة طويلة ثم قال:

- سأقضي المساء في حجرتي.

- هذا عظيم. والآن هل لك أن تؤدي إليَّ خدمة؟

- ما هي؟

انظر هل في الممر الخارجي أحد.

ففتح أشندن الباب ونظر في الدهليز فلم يجد أحدًا. والواقع أن الفندق في ذلك الموسم كان خاليًا تقريبًا من النزلاء فما أقل الأجانب في نابولي في زمن الحرب.

- كل شيء على ما يرام.

فخرج المكسيكي الأمرد يمشي في إقدام وجرأة منتصب القامة. وأغلق أشندن الباب خلفه ثم حلق ذقنه وارتدى ملابسه ببطء. وكانت الشمس مشرقة كالعادة في الميدان بصورة بهيجة. وكان كل شيء يقع عليه نظره يوحي بالسرور، إلا أن أشندن لم يشعر ببهجة ولا سرور في ذلك اليوم، لأنه

أحس بعدم ارتياح داخلي. وذهب كعادته إلى مقر القنصلية الإنجليزية ليسألهم هل وردت باسمه رسائل برقية أو بالشفرة، ولم يجد شيئًا، فذهب إلى مكاتب شركة كوك للسياحة، ونظر في مواعيد القطارات المسافرة إلى روما ليلًا، فإذا هناك قطار يقوم بعد منتصف الليل بقليل، وقطار آخر يقوم في الخامسة صباحًا. وتمنى لو استطاع ركوب القطار الأول.

ولم يكن يدري شيئًا عن خطط المكسيكي. فلو أنه كان حقًّا يريد الذهاب إلى كوبا لكان من الأفضل له أن يشق طريقه إلى إسبانيا. ولما نظر أشندن إلى مواعيد السفن، وجد أن هناك سفينة ستبحر في اليوم التالي من ميناء برشلونة.

وكان أشندن قد سئم نابولي. وأخذ الشعاع الساطع باستمرار في شوارعها يجهد عينيه، أما التراب فكان لا يطاق، والضوضاء تكاد تصم أذنيه.

وتوجه أشندن بعد ذلك إلى مقصف جاليريا وتناول كأسًا من الشراب. وقضى فترة بعد الظهر في دار للسينما. وبعد أن خرج من السينما ذهب مباشرة إلى فندقه وقال لكاتب الاستقبال:

- سأسافر في ساعة مبكرة جدًّا من صباح غد، ولهذا أفضل أن أسوي حساب إقامتي الآن.

وبعد تسوية الحساب أخذ أشندن حقيبته إلى المحطة ولم يترك في حجرته إلا حقيبة كتب صغيرة فيها كتابان. وعاد إلى الفندق فتناول الطعام وصعد إلى حجرته لينتظر فيها المكسيكي الأمرد.

ولم يستطع أن يخفي على نفسه أنه كان عصبيًّا للغاية. وشرع يقرأ ولكن الكتاب كان شاقًّا فجرب الكتاب الآخر. ولكن انتباهه كان يخونه، فيشرد كثيرًا عن القراءة. وبدأ ينظر في ساعته، فإذا الوقت لم يزل مبكرًا جدًّا، فرجع إلى الكتاب مرة أخرى، وآلى على نفسه ألا ينظر إلى ساعته مرة أخرى، إلا بعد أن يتم قراءة ثلاثين صفحة بعناية تامة.

ومع أنه كان يقرأ السطور بأمانة ودقة ولا يقفز منها شيئًا فإنه لم يفقه شيئًا كثيرًا مما قرأه. وفي ختام الثلاثين صفحة نظر إلى الساعة مرة أخرى فإذا بها لم تتجاوز العاشرة إلا بدقائق قليلة. وبدا يتساءل أين يكون المكسيكي الأمرد الآن؟ وماذا يصنع؟ وخشي أن يكون قد فشل في مهمته.

إنها مهمة فظيعة ولكن لا بد من الانتظار. وقام برأسه أن يغلق النوافذ ويسدل الستائر ففعل ذلك. ثم أخذ يدخن السجائر بصورة متلاحقة إلى أن صارت الساعة الحادية عشرة والربع. وخطر بباله خاطر جعل قلبه يدق دقًّا عنيفًا، ودفعه الاستطلاع إلى إحصاء نبضه، فأدهشه أن يجده عاديًّا تمامًا. ومع

أن الليلة كانت دافئة، والحجرة ثقيلة الهواء، فإن يديه وقدميه كانت باردة كالثلج.

وضاق بمخيلته الخصبة التي جعلت تجسم له أشكالًا غريبة جدًّا، وصورًا لا يريد أن يتمثلها بحال من الأحوال! إنه كاتب. وبحكم تلك المهنة كثيرًا ما فكر في جرائم القتل، وطالع في ذلك الموضوع. والآن يراود ذهنه وصف لجريمة قتل جاء في كتاب الجريمة والعقاب للكاتب ديستوفسكي، وهو الآن لا يريد أن يفكر في ذلك الموضوع ولكن الموضوع يفرض نفسه عليه فرضًا.

وسقط الكتاب من فوق ركبته وهو يسأل نفسه:

- هل نابولي مدينة يمكن أن يقترف أحد فيها جريمة قتل؟

ونظر أشندن مرة أخرى إلى الساعة وقد شعر بتعب شديد. ثم كفَّ عن محاولة القراءة لأن ذهنه قد أضحى كصحيفه بيضاء.

وعندئذ انفتح الباب برفق شديد فقفز أشندن واقفًا على قدميه وقد اقشعر بدنه. وإذا بالمكسيكي الأمرد يَنْتَصِب أمامه. وسأله باسمًا:

- هل أفزعتك؟

- ظننت أنك تفضل ألا أطرق الباب.

- هل رآك أحد وأنت تدخل؟

- لقد فتح لي حارس الليل وكان نائمًا عندما دققت الجرس فلم ينظر إليَّ. وإني آسف لأني تأخرت، ولكن كان يجب أن أغير ثيابي.

وكان المكسيكي الأمرد الآن في الثياب التي سافر بها، وفوق رأسه شعره المستعار الأشقر اللون الطويل. وكان الفرق الذي أحدثه هذا التغيير غريبًا حقًّا، فبدا أضخم قامة وأشد ازدهارًا. بل إن شكل وجهه نفسه تغير فعيناه الآن لامعتان، وهو يبدو في روح عالية جدًّا. ورمق أشندن بنظرة بريئة وقال:

- ما أشد شحوبك أيها الصديق! لا أخالك متوتر الأعصاب؟

- هل حصلت على الوثائق؟

- كلا. لم يكن يحملها في جيوبه. هذا كل ما كان معه.

ووضع فوق المنضدة مفكرة جيب سميكة وجواز سفر. فقال أشندن:

- لا أريدهما. خذهما.

فهز المكسيكي الأمرد كتفيه وأعاد «المخلفات» إلى جيبه.

- وماذا كان في حزامه؟ قلت إنه كان يتحسس خاصرته باستمرار.

- لم أجد إلا نقودًا. وقد قلبت صفحات مفكرته فوجدت بينها صور نساء. ولا بد أنه أودع الوثائق خزانة الفندق أو دولاب حجرته قبل أن يخرج معي للسهرة.

- يا للعنة!

- معي مفتاح حجرته. ومن المستحسن أن نذهب الآن ونفتش حقائبه تفتيشًا دقيقًا.

فشعر أشندن بغثيان في معدته وتردد. فابتسم المكسيكي ابتسامة لا تخلو من رقة، وقال كأنه يطمئن صبيًّا صغيرًا:

- لا مجازفة في الأمر أيها الصديق. ولكن إذا كنت غير مستريح فأنا مستعد أن أذهب بمفردي.

- كلا. أنا قادم معك.

- الكل نيام في الفندق. وطبعًا مستر أندريادي لن يعكر علينا صفونا. ويستحسن أن تخلع نعلك.

ولم يجب أشندن ولكنه لاحظ أن يديه ترتجفان قليلًا وهو يفك رباط نعله ويخلعه. وحذا المكسيكي الأمرد حذوه. ثم قال:

- من المستحسن أن تتقدمني أنت أيها الصديق. دُر إلى اليسار واتجه مباشرة في الدهليز، والحجرة رقم ٣٨.

وفتح أشندن الباب وخرج إلى الدهليز الخافت الضوء. وكان يضايقه أن يجد نفسه متوتر الأعصاب في الوقت الذي يرى فيه رفيقه هادئ الأعصاب للغاية.

ولما وصلا إلى الباب، رقم ٣٨ أولج المكسيكي الأمرد المفتاح في الباب ودخل فأضاء النور. وتبعه أشندن وأقفل الباب ثم لاحظ أن المصاريع الخشبية مقفلة. وقال المكسيكى بكل ارتياح:

- نحن الآن على ما يرام وأمامنا الوقت متسع كما تشاء.

ثم أخرج من جيبه حلقة من المفاتيح أخذ يجرب مفاتيحها في حقيبة الملابس إلى أن عثر على المفتاح المنشود. وأخذ يخرج المحتويات من الحقيبة، ثم قال بازدراء:

- ملابس من نوع رخيص! مبدئي دائمًا أنه من الأرخص للإنسان على طول المدى أن يشتري أحسن الأنواع. لأنه إما أن يكون الإنسان سيدًا شريفًا أو هو ليس بسيد شريف. والملابس تدل على الشخص.

فسأله أشندن بغيظ:

- هل من الضروري أن تتكلم؟

فابتسم المكسيكي الأمرد، وقال:

- ريح الخطر توثر على الناس بأساليب مختلفة. فهي مثلًا تثير حيويتي فقط. أما أنت فتتلف مزاجك أيها الصديق!

- وواضح أنني مرتاع أما أنت فلا.

- مسألة أعصاب ليس إلا.

وأخذ يتحسس كل ثوب بسرعة ودقة فلم يجد أوراقًا من أي نوع. فأخرج مديته وشق بطانة الحقيبة الداخلية فلم يجد شيئًا بداخلها.

- الوثائق ليست هنا. فلا بد أنها مخبأة في الحجرة.

- أواثق أنت أنه لم يودعها في مكان ما؟

- مثل؟

- إحدى القنصليات مثلًا.

- إنه لم يغب عن نظري لحظة واحدة إلا وهو في محل الحلاقة.

وفتح المكسيكي الأمرد الأدراج والدولاب. أما الأرض فكانت عادية، ثم فتش بين الحشايا والوسائد. وكانت عيناه السوداوان تتنقلان في وميض ثاقب بين أرجاء الحجرة بحثًا عن مخبأ. وشعر أشندن أن لا شيء يغيب عن تلك النظرة الفاحصة. فقال:

- تركها في خزانة الفندق أمانة.

- وهذا أيضًا كنت خليقًا أن أعلمه. ثم إنه ما كان ليجسر على تلك المجازفة، إنها ليست هنا وهذا ما أعجز عن فهمه.

- هيا بنا نخرج.

- دقيقة واحدة...

ثم ركع المكسيكي على ركبتيه وأخذ يطوي الملابس بسرعة وأناقة وأقفل الحقيبة ثم نهض واقفًا وأطفأ النور وفتح الباب بتؤدة ونظر في الدهليز ثم أومأ إلى أشندن وتسلل خارجًا. فلما تبعه أشندن أقفل المكسيكي الباب بالمفتاح وسار مع أشندن إلى حجرته. وبعد أن أغلق أشندن الحجرة بالمزلاج جفف يديه وجبهته من العرق الغزير، وصاح:

- الحمد لله. خرجنا من هناك سالمين.

فابتسم المكسيكى برفق وقال:

- الحق أنه لم يكن هناك أدنى خطر. ولكن ماذا نصنع الآن؟ سيغضب الكولونيل لأننا لم نعثر على الأوراق.

- سأركب قطار الخامسة صباحًا إلى روما. ومن هناك سأبرق إلى الكولونيل في طلب التعليمات.

- وهو كذلك. سآتي معك.

- أعتقد أنه من الأفضل لك أن تغادر هذه البلاد بأسرع ما يمكن، وغدًا ستبحر من هنا سفينة إلى برشلونة. فلماذا لا تركبها وإذا لزم الأمر ذهبت لمقابلتك هناك؟

فابتسم المكسيكي الأمرد، وقال:

- أراك متلهفًا على الخلاص مني. ولكني لن أخيب رغبة أملتها خبرتك في هذه الأمور، وسأسافر إلى برشلونة ولديَّ تأشيرة دخول إسبانية.

ونظر أشندن إلى ساعته وكانت قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل بقليل فأمامه ثلاث ساعات من الانتظار. ورأى زميله يلف سيجارة بكل راحة بال ثم قال لأشندن:

- ما رأيك في وجبة عشاء متأخرة الآن؟ فإني أشعر بجوع شديد، كجوع الضواري.

وكانت كلمة الطعام كافية لشعور أشندن بغثيان. ولكن حلقه كان جافًّا وبه رغبة في الشرب، ولم تكن به رغبة في الخروج مع المكسيكي الأمرد. وفي الوقت نفسه لم تكن لديه رغبة في البقاء بذلك الفندق وحده، فسأل المكسيكي:

أين يستطيع الإنسان أن يذهب في هذه الساعة؟

- تعالَ معي وسأجد مكانًا مناسبًا.

فوضع أشندن قبعته على رأسه وحمل حقيبة الكتب ونزلا على أطراف الأصابع حتى لا يوقظا حارس الليل النائم فوق مكتب الاستقبال. ولكن عين أشندن لمحت في الكوة التي تحمل رقم حجرته خطابًا. فأخذه ووجد عليه عنوانه فدسه في جيبه، وخرجا من باب الفندق بحذر ثم أغلقاه ومشيا بسرعة نحو مئة خطوة. وتحت ضوء مصباح في الشارع فض أشندن الخطاب فإذا به من القنصلية:

- نتشرف بإرسال هذه البرقية الشفرية التي وردت الليلة بصفة عاجلة.

ولا بد أن الخطاب وصل إلى الفندق قبل منتصف الليل. ولكن كسل الطليان المعروف جعل الموظف يودعه الكوة ولا يلتفت إلى كلمة عاجل جدًّا المكتوبة على المظروف. رغم أن رسولًا خاصًّا من القنصلية حمله إلى الفندق..

وفض أشندن البرقية الشفرية. ولما كانت عملية حل الشفرة تستغرق وقتًا فقد دس البرقية في جيبه إلى أن ينفرد بنفسه.

وكان المكسيكي الأمرد يسير كمن يعرف الطريق تمامًا في هذه الشوارع المقفرة وأشندن يسير بجواره. وأخيرًا وصلا إلى حانة في زقاق مغلق تنبعث منها ضجة ورائحة نفاذة، فدخل المكسيكي وهو يقول:

- إنها ليست فندق ريتس بطبيعة الحال. ولكن في هذه الساعة من الليل لا يوجد إلا مثل هذه الحانة.

وبين السكارى الفقراء وفتيات الليل القبيحات جلس الاثنان. وطلب الجنرال طبقين من الإسباجتي وزجاجة من نبيذ كابري. وما أن جاء الساقي بالزجاجة حتى شرب نصفها جرعة واحدة. وعزفت الموسيقا، فقام بعض السكارى ليرقصوا مترنحين. ونهض الجنرال أيضًا وقال لأشندن:

- ألا ترقص؟ سأرقص مع إحدى أولئك الفتيات.

وانتقى فتاة ذات عينين لامعتين وأسنان ناصعة فراقصها ولاحظ أشندن أنه يرقص ببراعة. وأنه يتحدث إلى المرأة وأن كلماته جعلتها تبتسم ثم تضحك. وظهرت آيات المرح على ذلك الحديث إلى نهاية الرقصة، عندئذ عاد إلى أشندن وأخذ يحثه على الرقص كي يشعر بالبهجة ولا يطول عليه وقت الانتظار.

وصدحت الموسيقا مرة أخرى. فنظر إلى الفتاة التي كان يراقصها وأشار بإصبعه فقفزت قادمة نحوه. فكاد يختطفها من فوق الأرض وهو يدور معها ثم أخذ يوزع النكات على الجالسين والراقصين بلغة إيطالية طلقة، فارتفعت الكلفة بينه وبين الجميع.

وفي وسط الرقصة رأى الساقي يحمل طبقي مكرونة فترك الفتاة بلا مقدمات وأسرع إلى الطعام. ولما أكد له أشندن أنه لا يريد أن يأكل شدد عليه. فأكل أشندن مضغة وإذا به يكتشف أنه جائع جدًّا فأكل بقية الطبق. أما الجنرال فالتهم طبقه التهامًا ثم طلب زجاجة أخرى من النبيذ. ثم مد ذراعه ليربت على ذراع أشندن. فصرخ أشندن:

- ما هذا الذي يلطخ كم معطفك؟

فألقى المكسيكي نظرة إلى كمه وقال:

- هذا؟ لا شيء. نقطة دم. حدث لي حادث صغير وجرحت نفسي

وسكت أشندن ثم تطلع إلى الساعة المعلقة فوق باب الحانة.

- أتفكر في قطارك؟ دعني أستمتع برقصة أخرى ثم أصحبك إلى المحطة.

ونهض المكسيكي بثقته التي لا حد لها وراقص أقرب امرأة إلى يده. وأخذ أشندن يتابعه بنظراته وهو متعجب ومعجب برشاقته الفائقة ومرحه ولولا أنه ينبغي أن يصفي معه حسابًا معينًا على حسب التعليمات قبل سفره لتركه يرقص حتى الصباح واتجه إلى المحطة بمفرده.

وكانت التعليمات أن يسلم المكسيكي مبلغًا معينًا في مقابل وثائق معينة. والوثائق لم يعثر لها على أثر. وهو لا يدري ما العمل الآن. وقطع عليه حبل أفكاره تلويح المكسيكي الأمرد له وهو يمر بقربه.

سآتي بمجرد توقف الموسيقا عن العزف. ادفع الحساب حتى نكون على أَتَمّ الاستعداد.

وتمنى أشندن لو أنه استطاع النفاذ إلى عقل هذا الرجل العجيب. فهو لا يدري سر تركيبه الخاص وتوقفت الموسيقا وأقبل المكسيكي وهو يجفف بمنديله المعطر العرق عن جبينه، فسأله أشندن:

هل استمتعت بوقتك يا جنرال؟

- أنا دائمًا أستمتع بوقتي. نساء قبيحات. نفايات بيضاء ولكن ماذا يعنيني؟ انا أحب أن أشعر بجسد امرأة بين ذراعي وأن أرى عينيها تنكسران، وشفتيها تنفرجان، لأن جاذبيتي أذابت نخاع عظامها كما يذوب الزبد في حرارة الشمس. نفايات بيضاء. ولكنها نماذج من الأنوثة، وأنا لا بد لي من إناث..

ومشى الاثنان في طريق المحطة. وكانت ليلة صائفة، الريح فيها ساكنة، والصمت يسير معهما كأنه شبح ميت، وقرب المحطة كانت في البيوت بقية من حياة. وسرت في الليل رجفة مقلقة تنذر بقرب طلوع الفجر. وسرعان ما ضمهما مبنى المحطة. وكانت الاستراحة خالية فجلسا في ركن منها. وكانت الساعة الرابعة. وأمام أشندن ساعة كاملة فأخرج البرقية وأخذ يحل رموز الشفرة المعقدة. وعندما فرغ من ذلك أخيرًا قرأها جملة واحدة. فاذا بها كالآتي:

قسطنطين أندريادي عاقه المرض عن ركوب السفينة من بيريه. عد حالًا إلى جنيف وانتظر التعليمات وصرخ أشندن بصوت مكتوم:

- أيها الأحمق! لقد قتلت رجلًا لا جريرة له!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع
رحلة إلى باريس

وكان من عادة أشندن أن يؤكد دومًا أنه لا يعرف السأم. ومن آرائه أن من يسأم من الناس إنما هم الذين ليست في نفوسهم مصادر للمعرفة أو الاهتمام أو الاستمتاع. والأغبياء هم الذين كل اعتمادهم في التسلية والاستمتاع على العالم الخارجي.

ولم تكن لدى أشندن أوهام عن نفسه، وما أوتيه من نجاح في عالم الأدب لم يحدث برأسه دوارًا. فكان يفرق بدقة بين الشهرة ذات الجذور والأساس وبين الشهرة السهلة التي تواتي مؤلف رواية ناجحة أو مسرحية موفقة. وهذا النوع الأخير من الشهرة لم يكن أشندن يكترث له إلا بمقدار ما يفيء عليه من امتيازات أو منافع ملموسة، فهو مستعد تمام الاستعداد أن يستفيد من اسمه الذائع كي يحصل على قمرة فوق سطح السفينة أفضل من القمرة التي دفع أجرها. وإذا اتفق أن ضابط الجمرك أجاز حقائب أشندن من غير أن يفتحها لأنه قرأ له قصصه القصيرة، فهو حري أن يقر بأن ممارسة الأدب لا تخلو من عائد نافع. ولكنه كان يتنهد وهو يحس بضيق صدره حينما يلح عليه شباب طلاب الفنون التمثيلية كي يناقشوا معه حرفية التأليف المسرحي، وكذلك حينما تهمس العجائز القبيحات من النساء في أذنه بإعجابهن الشديد بكتبه وكان يتمنى في أعماق نفسه لو مات.

وكان أشندن يعتقد في نفسه الذكاء. فكان من السخف مع هذا الاعتقاد أن يسلم نفسه للسأم.. والواقع أنه كانت لديه القدرة على الحديث إلى أشخاص لهم شهرة مستفيضة بالغباء وثقل الظل، حتى أن الناس يهربون من مجالستهم كأنهم من الدائنين، فمثل هؤلاء الناس هم المادة الخام التي يصوغ منها شخصياته الروائية. ولديه الآن كل شيء يطمح إليه الرجل العاقل كي يجد التسلية المعقولة. فَتَحتَ تصرفه غرف لطيفة في فندق من أجود فنادق جنيف، وجنيف من ألطف المدن التي تطيب فيها الإقامة في أوروبا قاطبة.

ومن عادة أشندن أن يستأجر زورقًا للتجديف فوق مياه البحيرة أو حصانًا يركبه للسير البطيء. ففي هذه المدينة الأنيقة لا توجد مساحات من الأرض مكسوة بالعشب يستطيع المرء فيها أن يجرى بجواد راكض. وفي أحيان أخرى كان يتجول راجلًا في الشوارع القديمة، ويحاول أن ينفذ، وهو بين تلك البيوت الحجرية الرمادية الهادئة الوقور، إلى روح العصر الغابر الذي بنيت فيه. وكان يقرأ أيضًا في تلك المدينة مرة بعد أخرى اعترافات روسو الرائعة. وحاول عبثًا أكثر من مرة أن يتم قراءة روايته المشهورة. ألويز الجديدة. وبين حين وحين كان يكتب صفحات متفرقة. أما الناس فكان لا يختلط بهم كثيرًا.

فمهنته الراهنة لا تخول له التعرف إلى عدد كبير منهم. ولكنه على صلات سطحية بعدد قليل من نزلاء الفندق في الحدود التي تسمح له بتبادل الحديث السطحي العابر، كي لا يشعر بالعزلة التامة. وهكذا كانت حياته حافلة بما فيه الكفاية، غير خالية من التنويع، وفي الأوقات التي لا يجد فيها ما يفعله كان يلوذ بأفكاره وخواطره الخاصة فيجد في ذلك مسلاة غير قليلة.

فمن العبث إذن أن يظن ظانٌّ أن أشندن كان فريسة للسأم والملل. فكان يكفيه مثلًا وهو يركض بجواده حول مدينة جنيف أن يتذكر سحنة رؤسائه في إدارة المخابرات السرية، ويتسلى على حسابهم، ولو على سبيل الانتقام. فمن العدل أن نعترف أن أولئك الرؤساء يستمتعون بتحريك جهاز المخابرات الضخم، ويشاهدون النتائج المثيرة، ويطلعون على التحركات والتيارات الخفية التي تشبه لعبة شطرنج هائلة. في حين يشقى المرؤوسون من الجواسيس والعملاء أمثال أشندن بتنفيذ خطوات جزئية لا يتاح لهم في الغالب فهم شيء عن أسبابها، أو الاطلاع على شيء من كنهها. وكأنهم آلات صماء تتحرك بغير شعور أو إدراك أو دمى خشبية ينفذ بها أغراضه. مما يجعل الغيظ يترسب في الأعماق عن غير قصد.

والحقيقة أن نظام أشندن اليومي في العمل كان رتيبًا متشابهًا كحياة مستخدمي المكاتب. فكان يقابل الجواسيس الذين يعملون تحت إشرافه في فترات مرسومة بدقة ويسلمهم رواتبهم.

وعندما يتفق له أن يقع على عنصر صالح للجاسوسية كان يستخدمه ويصدر إليه تعليماته، ثم يبعث به إلى ألمانيا، وينتظر ما يمكن أن يرسله من المعلومات، فيتولى توصيلها إلى القيادة العامة. وكان يعبر الحدود مرة واحدة كل أسبوع ليتباحث مع زميله مدير الجاسوسية في فرنسا، ويتسلم منه تعليمات لندن.

أما سوق جنيف فكان يذهب إليه يوميًّا، ليغطي ذهابه في يوم السوق الأسبوعي كي يقابل بائعة الزبد ويتسلم منها أية رسالة يمكن أن تأتيه بها عبر الحدود. وكان دائمًا مفتوح العينين والأذنين لكل همسة وكل حركة. ويكتب تقريرات طويلة كان يظن أن أحدًا لا يقرؤها في القيادة كما هو معهود في المكاتب الحكومية إلى أن جاءه ذات يوم توبيخ على بعض عبارات هازلة وردت في غضون أحد تقاريره..

ومن بين أسباب التسلية التي حاول أن يرفه بها عن نفسه، لِتُخَفّفَ من رتابة عمله المتشابه في جنيف، أن فكر ذات يوم في مغازلة البارونة فون شجنز.. فهو الآن واثق من أنها جاسوسة في خدمة الحكومة النمساوية. ولذا كان يتوقع أن يسفر الصراع الماكر بينهما عن لذة مثيرة. فمن المسلي ولا شك

أن يلتحم ذكاؤه بذكائها في مناورة، وكان على يقين من أنها ستحرص على نصب الفخاخ له باستمرار، ومما لا شك فيه أن روغانه من تلك الفخاخ سيكون له نشاطًا ذهنيًّا ينفض الصدأ عن عقله. ووجد لديها استعدادًا لتلك اللعبة الشائقة، فكلما أرسل إليها طاقة من الأزهار بعثت إليه بكلمة رقيقة.

وأقدم بعد ذلك على دعوتها إلى نزهة في قارب بالمجاديف على متن البحيرة، فلبت طلبه واسترخت في القارب الصغير وأدلت ذراعها البيضاء العارية الطويلة الممشوقة بحيث انغمست أناملها البضة في الماء وأخذت تحدثه عن الحب حديثًا لمحت فيه تلميحًا إلى قلبها المحطم. وتناولا العشاء بعد ذلك معًا، ثم توجها لمشاهدة تمثيل باللغة الفرنسية نثرًا لرواية روميو وجولييت...

ولم يكن أشندن قد استقر رأيه بعد على المدى الذي يبلغه في علاقته بهذه البارونة عندما جاءته رسالة ذات لهجة حادة من الكولونيل، يستفسره عن هدفه من تلك اللعبة، لأن المعلومات قد وصلت إلى الرئاسة بأن أشندن يكثر من الاختلاط بامرأة تدعو نفسها البارونة هيجنز وهي في الواقع جاسوسة لدول المحور. وأنه من غير المرغوب فيه أن تكون لأشندن بها أية علاقات سوى علاقات المجاملة في حدها الأدنى!

وهز أشندن كتفيه استخفافًا وقد أدرك أن الكولونيل لا يحسن الظن به، كما يحسن هو الظن بنفسه. ولكنه أيقن بعد ذلك من صدق الظن الذي ذهب إليه من قبل من وجود شخص ما في مدينة جنيف مكلف من قبل الكولونيل بمراقبة حركاته وسكناته ورفع التقارير عنه إلى رؤسائه، للتأكد من أنه لا يهمل في أداء واجباته ولا يتورط في المزالق. وكان هذا مما زاد في تسلية أشندن، كأنه مشترك في لعبة استخفاء ضخمة، وزاد إعجابه بالكولونيل الداهية الذي لا يترك شيئًا للمصادفات ولا يثق بأي شخص ثقة كاملة، إن الناس في نظر هذا الكولونيل أدوات يستخدمها في أغراضه، من غير أن يحاول تحديد قيمة لهذه الأداة أو تلك.

وجعل أشندن يستعرض في مخيلته الأشخاص المحيطين به عسى أن يعرف على وجه التحديد من هو ذلك الشخص الذي وشى به عند الكولونيل. ورجح عنده أن هذا الشخص أحد سقاة الفندق وخدمه. فهو يعهد الكولونيل ميالًا لاستخدام خدم الفنادق في التجسس ولا عجب! فطبيعة عملهم تسمح لهم برؤية الكثير وسماع الكثير بحكم وجودهم في مواطن التقاء النزلاء والغرباء، ثم خطر له بعد ذلك أنه ليس من المستبعد أن يكون الكولونيل قد حصل على تلك المعلومات من البارونة نفسها، فليس من المستبعد بعد كل شيء أن تكون في خدمة إحدى دول الحلفاء، فالكثيرون يأكلون على المائدتين في زمن الحرب. وعلى كل حال فقد استمر أشندن في علاقة المجاملة المهذبة

تجاه البارونة. ولكنه كف عن التودد إليها، وذات يوم عاد أشندن من نزهته على ظهر جواده، ودخل الفندق فوجد لدى موظف الاستقبال برقية هذا نصها:

«العمة ماجي مريضة ومقيمة بفندق لوتي بباريس. أرجوك إذا أمكن أن تذهب لزيارتها. ريموند»

وكان اسم ريموند من الأسماء المستعارة التي يؤثر الكولونيل استخدامها. ولما كان أشندن ليست له عمة بهذا الاسم، فقد أدرك أن الكولونيل يأمره بالتوجه إلى هذا الفندق في باريس. وكان يعرف أن الكولونيل حين يكون منشرح الصدر يستخدم أساليب الروايات البوليسية الرخيصة. ومعنى أن الكولونيل في حالة نفسية جيدة أنه متأهب لتسديد ضربة جديدة. أما بعد إتمام الضربة فإنه يكون في حالة نفسية سيئة تترك آثارها على تصرفاته مع مرؤوسيه.

ووضع أشندن البرقية بإهمال مقصود فوق المكتبة ثم سأل موظف الاستقبال عن موعد القطار السريع المتجه إلى باريس. ثم نظر إلى ساعته ليرى هل أمامه متسع من الوقت للتوجه إلى القنصلية قبل مواعيد الإغلاق كي يحصل على تأشيرة الدخول، وبينما هو يصعد السلم ليحضر جواز سفره من حجرته قال له عامل الاستقبال:

- لقد ترك السيد برقيته.

- ما أغباني!

وهكذا صار من المؤكد لدى أشندن أنه في حالة تساؤل البارونة عن سبب سفره المفاجئ إلى باريس قد تعلم أن مرض قريبته هو السبب. ومن المستحسن في زمن الحرب أن يعتبر الإنسان كل من حوله جواسيس، ولا سيما موظفو الفنادق.

وكان معروفًا في القنصلية الفرنسية، فلم يستغرق وقتًا طويلًا في الحصول على تأشيرة الدخول. ثم طلب من عامل الاستقبال في الفندق أن يحصل له على تذكرة في القطار السريع، وصعد إلى حجرته ليستحم ويبدل ثيابه وهو مسرور بالذهاب إلى باريس، لأنه يحب تلك الرحلة في القطار السريع ما بين جنيف والعاصمة الفرنسية. ثم إنه من الأشخاص الذين يستطيعون النوم في عربات النوم بالقطارات. وإذا أيقظه الوقوف المفاجئ في إحدى المحطات يلذ له أن يدخن سيجارة في الظلام مستطيبًا تلك الوحدة. وإذا استيقظ على ضجة القطار أصغى لصوت العجلات، وهدير البخار، وشرد بخواطره وأفكاره،

وخيل إليه أن القطار في جوف الليل شهاب يشق أجواز الفضاء إلى مصير مجهول.

وعندما وصل أشندن إلى باريس كان الجو باردًا والمطر يسقط رذاذًا، وشعر بحاجته إلى حلاقة ذقنه ثم الاستحمام وتبديل ثيابه. ولكنه آثر أن يتصل من المحطة تليفونيًّا بالكولونيل ويسأله:

كيف صحة العمة ماجي الآن؟

وأجابه صوت الكولونيل والضحك يعترض كلماته:

يسرني أن أرى عواطفك نحوها تدفعك إلى الحضور بغير إبطاء، فحالتها في تأخر شديد. وإن كنت واثقًا أنه سوف يسرها ويفيدها صحيًّا أن تراك.

- ومتى تسمح لها ظروفها باستقبالي فيما تظن؟

فضحك الكولونيل وقال:

- أعتقد أنها ستكون حريصة على تنسيق زينتها قبل حضورك. فهي كما تعلم متعلقة دائمًا بمظهرها. فليكن إذن الموعد في منتصف الحادية عشرة. وبعد أن تجاذبها أطراف الحديث سيكون في وسعنا أن نخرج لتناول الغداء معًا في مكان ما.

- وهو كذلك، سأحضر إلى فندق لوتي في العاشرة والدقيقة الثلاثين.

وعندما وصل أشندن إلى الفندق وقد صار نظيفًا أنيقًا مجدد النشاط، استقبله جندي المراسلة الذي يلازم الكولونيل في البهو السفلي، ثم صحبه إلى جناح الكولونيل الخاص، ففتح الباب وأدخل أشندن. وإذا بالكولونيل واقف وظهره مستند إلى كتلة من الخشب مشتعلة في المدفأة، يملي على سكرتيره. فقال:

- اجلس.

ثم واصل الإملاء. وكانت حجرة الجلوس حسنة الأثاث. وهناك مجموعة من الورد في زهرية، مما يوحي بأن التي رتبتها بهذا الذوق امرأة مترفة. وفوق منضدة كبيرة كومة ضخمة من الأوراق. وكان الكولونيل يبدو أكبر سنًّا من آخر مرة رآه فيها أشندن. وكان وجهه النحيل الأصفر أحفل بالغضون والتجاعيد، وشعره أشد بالشيب اشتعالًا. وكانت وطأة العمل بادية عليه فهو لم يكن يرحم نفسه أو يدخر شيئًا من طاقته. يستيقظ في السابعة صباحًا كل يوم ويظل يعمل في دأب إلى ساعة متأخرة من الليل.

وأخيرًا قال الكولونيل:

- هذا يكفي. وخذ معك كل هذه الأوراق واكتبها على الآلة. فإني أريد أن أوقعها قبل أن أخرج للغداء، وقال للمراسلة إنه لا يريد أن يزعجه أحد في خلوته بأشندن.

وكان السكرتير ملازمًا ثانيًا في الحلقة الثالثة من عمره. وكان واضحًا أنه مدني مجند بصفة مؤقتة. وجمع السكرتير كمية الأوراق وغادر الحجرة. وخرج وراءه المراسلة. ولما صار أشندن والكولونيل وحدهما التفت الكولونيل إليه وقال:

- هل استمتعت برحلة طيبة؟

- نعم ياسيدي.

فأشار الكولونيل إلى حجرة الجلوس من حوله وقال:

- وما رأيك في هذا النظام؟ لا بأس به. أليس كذلك؟ وأنا لا أرى مانعًا يمنع الناس من محاولة التخفيف من متاعب الحرب كلما أمكنهم ذلك.

وكان الكولونيل أثناء هذه الثرثرة يحدج أشندن تحديجًا قويًّا. وكانت النظرة من عينيه الباهتتين توحيان إليك أنه ينظر إلى عقلك عاريًا ولا يعجبه ما يدور فيه! ومن خصائص الكولونيل أنه في بعض الأحيان لا يكتم اعتقاده بأن جميع أفراد الجنس البشري إما بلهاء وإما أوغاد... وكانت هذه إحدى العقبات الكثيرة التي تمنع الألفة بينه وبين الناس وتجعله لا يثق بهم. لأنه في الغالب يفضل أن يسوي حسابه على اعتبار أن الناس جميعًا أوغاد، فذلك أدعى للحرص وعدم خيبة الأمل.

والكولونيل جندي محترف قضى معظم مدة خدمته في الهند والمستعمرات. وعند اندلاع نيران الحرب كان معسكرًا في جاميكا.

وتذكره واحد ممن تعاملوا معه من رجال وزارة الحربية فاختاره لإدارة المخابرات. وكانت كفاءته الفائقة سببًا في سرعة ترقيه إلى منصبه الخطير، فهو والحق يقال ذو طاقة ضخمة على العمل وموهبة في التنظيم مع شجاعة وعزم وجمود عاطفة.

ولعله خالٍ من مواطن الضعف سوى موطن واحد وهو أنه لم يخالط طول حياته من النساء على وجه الخصوص أحدًا من ذوات الأقدار الاجتماعية المعتبرة. فكل من عرفهن طول حياته من النساء هن زوجات زملائه الضباط وزوجات موظفي الحكومة وزوجات رجال الأعمال. فلما جاء إلى لندن في بداية الحرب وأصبح في عمله الجديد على صلة بنساء ممتازات لأمهات حسناوات، بهره ذلك فشعر بالخجل والضآلة نحوهن. ولكنه استمر على صلاته الاجتماعية بهن وصار من المولعين بالنساء. وكان أشندن يعرف عنه أكثر مما

يخيل إليه. لذا كان لزهرية الورد الأحمر عنده مغزى واضح غير الذي حاول الكولونيل إيهامه به من تخفيف وطأة الحرب.

وكان أشندن يعلم تمام العلم أن الكولونيل لم يرسل إليه ليتحدث عن الجو والمحصولات. وتساءل بينه وبين نفسه متى سيدخل الكولونيل في الموضوع. ولم يطل تساؤله:

- لقد أبليت بلاء حسنًا في جنيف.

- يسرني أنك ترى هذا الرأي يا سيدي.

وفجأة بدا الكولونيل قاسيًا حازمًا، لقد نفض يده من حديث المجاملة.

- عندي لك عمل يا أشندن.

ولم يجب أشندن ولكن قلبه اختلج بالسرور. واستطرد الكولونيل:

- هل سمعت عن شندرالال من قبل؟

- كلا يا سيدي.

وظهر نفاد الصبر على جبين الكولونيل المقطب. لأنه كان يتوقع من مرؤوسيه أن يعرفوا كل شيء يرغب في أن يعرفوه.

- وأين كنت تعيش يارجل طيلة هذه السنين؟

- في رقم٣٦ شارع شستر فيلد بحي ماي فير!

فلاح شبح ابتسامة على وجه الكولونيل الأصغر. فقد كان يعجبه مثل ذلك الرد الساخر. واتجه إلى المنضدة الكبيرة، وفتح حقيبة أوراق كانت فوقها فاستخرج منها صورة فوتوغرافية قدمها إلى أشندن:

- هذا هو شندرالال.

بالنسبة لأشندن الذي لم يألف رؤية الوجوه الشرقية كانت الصورة تبدو كأية صورة لأحد راجات الهند الذين يحضرون في زيارات موسمية إلى لندن وتنشر صورهم في المجلات المصورة. فالوجه بدين، والبنية مفرطحة والشفتان ممتلئتان، والأنف كبير، والشعر أسود غزير مستقيم. وعيناه المفرطحتان في السعة أشبه في الصورة بعيني البقرة، وهو يبدو على غير سجيته في ثيابه الأوروبية.

وأعطى الكولونيل لأشندن صورة أخرى، وهو يقول:

- وهذا هو في ثيابه القومية.

وكانت الصورة الأخرى تمثله بطوله. أما الأولى فلا يظهر فيها الا الرأس والكتفان. ويبدو أنها كانت مصورة منذ بضع سنوات فهو فيها أنحف حتى أن عينيه الكبيرتين الجادتين جدًّا كادتا تبتلعان وجهه، والمصور الذي صنع الرسم هندي من كلكتا جعل وراء ظهر شندرالال نخلة نابتة على شاطئ البحر. ووقف شندرالال ويده متكئة على أصيص به نبات المطاط. ومع هذا كان يبدو في عمامته الكبيرة وإزاره الأبيض الطويل رجلًا مهيبًا.

وسأل الكولونيل:

ما رأيك فيه؟

- إنه رجل لا يخلو من شخصية. فيه قوة ومضاء.

- هاك الملف الخاص به، اقرأه جيدًا.

وقدم الكولونيل إلى أشندن صفحتين مكتوبتين على الآلة الكاتبة فانصرف إلى قراءتهما، ووضع الكولونيل نظارته فوق عينيه، وشرع يتصفح الخطابات التي تنتظر توقيعه.

وتصفح أشندن التقرير بسرعة ثم أعاد تلاوته بمزيد من التمعن. ويبدو أن شندرالال كان مهيجًا من أخطر المهيجين، وحرفته الأصلية المحاماة، بيد أنه احترف السياسة وصار من أعدى أعداء الحكم الإنجليزي في الهند. وممن يؤمنون بضرورة استخدام القوة المسلحة وفي كثير من حوادث الشغب التي أهدرت فيها الدماء كان لشندرالال إصبع كبير. وقبض عليه مرة وحوكم وأدين وقضى في السجن سنتين. فلما كانت بداية الحرب، وكان قد أطلق سراحه، انتهز الفرصة وبدأ يستعد للتمرد المسلح الصريح. ومنذ ذلك الوقت وهو في قلب كل مؤامرة لإحراج الحكم الإنجليزي في الهند، حتى يحول ذلك بين إنجلترا ونقل القوات من هناك إلى ميدان الحرب في أوروبا. وكان الألمان يغدقون عليه مبالغ طائلة من المال، مما يتيح له الإنفاق على تلك المؤامرات والاضطرابات الواسعة المدى. وقد ثبت اشتراكه وتدبيره لأكثر من عملية نسف بالقنابل، أزهقت فيها أرواح الأبرياء من المارة وأصيبت الممتلكات بأضرار. وكان لها أثر كبير في هز أعصاب الرأي العام وإفساد الروح المعنوية. واستطاع شندرالال أن يفلت من جميع المحاولات التي بذلت لإلقاء القبض عليه وكان نشاطه هائلًا، يُكثِر من التنقل هنا وهناك ومع هذا عجزت الشرطة عن إيقاعه في شباكهم وهو عندما يؤلب الجماهير في مدينة ما، فإنه لا يلبث أن يغادرها بعد أن يفرغ من مهمته بها.

وأخيرًا رصدت جائزة كبرى للإرشاد إليه ففر من الهند إلى أمريكا. ومن هناك انتقل إلى السويد ثم إلى برلين. وفي برلين جعل همه بذر بذور الشقاق بين

القوات الهندية التي جيء بها إلى أوروبا.

كل ذلك ذكره التقرير بطريقة جافة من غير تعليق أو توضيح. ولكنك من خلال السطور تحس بروح الغموض والمغامرة والقدرة الخارقة على الإفلات من المخاطر في جرأة وجسارة. وجاء في ختام التقرير ما يلي:

«وشندرالال له زوجة في الهند وطفلان. وليست له علاقات نسائية ولا يدخن أو يشرب الخمر، ويقال إنه أمين. وهو ذو شجاعة فائقة وجلد على العمل. وقال إنه شديد الاعتزاز بمحافظته على وعده».

ولما انتهى أشندن من التقرير أعاده إلى الكولونيل فسأله:

- ما رأيك؟

- إنه يبدو متعصبًا جدًّا وشديد الخطورة.

والواقع أن اشندن كان يرى في شخصية شندرالال كثيرًا من عناصر الرومانتيكية الجذابة، ولكنه كان حريصًا على عدم الإفضاء بهذا إلى الكولونيل الذي لا يفقه تلك العواطف. وقال الكولونيل:

- الحقيقة يا أشندن أنه أخطر متآمر ضدنا داخل الهند وخارجها على السواء. وقد أوقع بنا من الخسائر أكثر مما أوقعه سائر الهنود مجتمعين. فأنت تعلم أن هناك عصبة كبيرة من هؤلاء الهنود العصاة في برلين، ولكن هذا الرجل هو العصب المحرك لهم جميعًا. فإن استطعنا أن نخرجه من الميدان لم تعد لهم أدنى أهمية لأنه الوحيد من بينهم الذي أوتي الذكاء. ولي الآن أكثر من سنة وأنا أحاول الإيقاع به. ولكن كدت أيأس من إمكان ذلك. إلى أن لاحت لي الفرصة أخيرًا، وسوف أنتهزها وأقبض عليه.

- وماذا عساك تصنع به؟

فضحك الكولونيل وقال:

- أطلق عليه الرصاص بلا إمهال!

ولم يجب أشندن. ونهض الكولونيل فجعل يذرع الحجرة مرة أو مرتين ثم وقف وظهره إلى المدفأة وواجه أشندن وعلى شفتيه النحيفتين ابتسامة ساخرة، وقال:

- هل لاحظت ما جاء في ختام التقرير الذي أطلعتك عليه من أنه ليست له علاقات نسائية؟

- نعم.

- كان هذا صحيحًا. ولكنه الآن غير صحيح. لقد وقع المغفل في الحب إلى أذنيه!

واتجه الكولونيل إلى حافظة الأوراق الموضوعة فوق المنضدة وأخرج منها حزمة مربوطة بشريط أزرق باهت من الحرير، وقال:

- انظر! ها هي ذي خطاباته الغرامية.. وأنت رجل تؤلف روايات. وقد يروق لك أن تطالعها. بل إنك في الواقع لا بد أن تطالعها لأنها ستساعدك على معالجة الموقف. فخذ هذه الخطابات معك. وإن الإنسان ليعجب كيف يسمح رجل قدير، مثل شندرالال، لنفسه بالتدله في حب امرأة. إنها آخر ماكنت أتوقعه من تصرفاته.

فرمق أشندن عندئذ الورد الموضوع في الزهرية فوق المنضدة ولم يقل شيئًا. ولم تفت هذه النظرة عين الكولونيل الفاحصة فقطب وجهه ولكنه لم يقل شيئًا. وعاد إلى الموضوع:

- ليس من شأننا على كل حال أن نعلق على أفعاله. المهم أن شندرالال يحب امرأة تسمى جوليا لازاري إلى درجة الجنون.

- وهل تعلم كيف تعرف بها؟

- طبعًا أعرف كيف تعرف بها! إنها راقصة. تخصصت في الرقص الإسباني ولكنها إيطالية الجنسية. وقد اتخذت اسمًا فنيًّا لها هو «لاملاجورنيا». ولعلك تعلم ذلك النوع من الرقص على موسيقا إسبانية شعبية مع استعمال حرملة المصارعين الحمراء ومروحة ومشط عالٍ. وقد ظلت ترقص في أرجاء أوروبا طيلة السنوات العشر الماضية.

- وما مستواها؟

- سيئ جدًّا. كانت تعمل في إنجلترا بملاهي الأقاليم، ثم عملت بعض الوقت في لندن ولم يزد أجرها على عشرة جنيهات في الأسبوع. ولقد التقى بها شندرالال في برلين حينما كانت تعمل في أحد الملاهي الرخيصة هناك. وأعتقد أنها في جولاتها الأوروبية كانت تعتبر قيامها بالرقص مجرد وسيلة لرفع قيمتها وأجرها كمومس.

- ولكن كيف وصلت إلى برلين في زمن الحرب؟

- كانت متزوجة في وقت ما من إسباني، وأعتقد أنها لم تزل معه ولكنهما لا يعيشان معًا. فكانت تنتقل بجواز سفر إسباني يسمح لها بدخول دول المحور. ويبدو أن شندرالال وقع في هواها من أول وهلة.

وتمعن الكولونيل في الصورة الفوتوغرافية قليلًا ثم استطرد:

- ما كان الإنسان ليعتقد أن هناك أية جاذبية خاصة لذلك الزنجي الدهني التكوين. يا إلهي. ما أشد قابليتهم للبدانة! ولكن مما لا شك فيه أن الفتاة أحبته مثلما أحبها. فتحت يدي صور خطاباتها إليه. أما الخطابات الأصلية فتحت يده، وأنا واثق أنه يحتفظ بها مربوطة بشريط قرمزي، إنها مجنونة به. وأنا لست من رجال الأدب. ولكن أظنني أعرف رنة الصدق. وأنت ستطالع هذه الخطابات على كل حال وتخبرني برأيك فيها. ومن العجب أن الناس يقولون إنه لا وجود لشيء اسمه الحب من أول نظرة.

وابتسم الكولونيل في تهكم يسير. فقد كان بغير شك معتدل المزاج هذا الصباح... وسأله أشندن:

- وكيف حصلت على كل هذه الخطابات الخصوصية؟

- كيف حصلت عليها؟ إنها ايطالية المولد، ولذلك كانت تطرد بين حين وحين من ألمانيا إلى الحدود الهولندية. ولما كانت لديها عقود للرقص في إنجلترا فقد سمحنا لها بدخول بريطانيا. وعلى هذا الأساس أبحرت في ٢٤ أكتوبر الماضي من روتردام إلى هارويتش ورقصت في ملاهي لندن وبرمنجهام وبورتسموث وغيرها. ثم قبض عليها منذ أسبوعين في مدينة هل.

- وما السبب؟

- الجاسوسية. ثم نقلت من هل إلى لندن وقد توجهت بنفسي فقابلتها في سجن هولوواي.

وتبادل أشندن والكولونيل النظرات برهة من غير أن يتكلما. ولعل كلًّا منهما كان يحاول بكل جهده أن يقرأ أفكار الآخر. وكان أشندن يتساءل عن مدى الصدق في كلمات الكولونيل. لذا سأله:

- ولكن كيف توصلتم إلى كشف حقيقتها؟

- لقد تراءى لي أنه من الغريب حقًّا أن يسمح لها الألمان بالرقص في أمانٍ مدة أسابيع متوالية في برلين، ثم فجأة ومن غير سبب ظاهر يقررون إخراجها من البلاد. إن ذلك يبدو تمهيدًا جيدًا لقيامها بالتجسس. ولا سيما لأن الراقصة التي لا تحرص كثيرًا على عفتها يمكن أن تصل إليها معلومات ثمينة تدفع برلين فيها ثمنًا عاليًا. فلما طلبت الإذن بدخول إنجلترا رأيت أن أسمح لها بالحضور كي يتبين ماذا وراءها بالضبط. وأبقيت عيني عليها، فاكتشفت أنها كانت ترسل خطاباتها إلى عنوان ما في هولندا مرتين أو ثلاثًا كل أسبوع. ومرتين أو ثلاثًا كل أسبوع كانت تتلقى ردودًا من هولندا وكانت رسائلها مكتوبة بخليط عجيب من الفرنسية والألمانية والإنجليزية. فهي تتكلم الإنجليزية بصعوبة وعلى قلة. ولكنها تتكلم الفرنسية بطلاقة. أما الردود

فكانت مكتوبة كلها بالإنجليزية. وبإنجليزية متينة التركيب. ولكنها ليست إنجليزية رجل إنجليزي فهي ذات أسلوب زخرفي يميل للجزالة والفخامة. فكنت أتساءل من عساه يكون كاتب هذه الخطابات. وكانت الخطابات في مظهرها رسائل غرام عادية ولكنها من النوع الشديد السخونة. وكان واضحًا جدًّا أنها مرسلة من ألمانيا، وأن الكاتب ليس إنجليزيًّا ولا فرنسيًّا ولا ألمانيًّا. فلماذا إذن يكتب بهذه الإنجليزية؟ إن الأجانب الوحيدين الذين يعرفون الإنجليزية خيرًا من معرفتهم لأي لغة أوروبية أخرى هم المشارقة وخاصة الهنود. وهكذا خلصت إلى أن حبيب جوليا أحد أفراد العصابة الهندية التي تدبر الشغب في برلين. ولم يخطر ببالي أنه شندرالال بنفسه إلا عندما عثرت على الصورة الفوتوغرافية.

- وكيف حصلت على هذه الصورة؟

- كانت تحملها معها أينما ذهبت، وتحتفظ بها في حقيبتها المغلقة، مع مجموعة كبيرة من الصور المسرحية لمغنين ومهرجين ولاعبي السيرك. فكان من الممكن جدًّا أن يظن الناظر أن تلك الصورة لأحد الفنانين في ثياب التمثيل. والواقع أننا عندما قبضنا عليها فيما بعد وسألناها عن صاحب الصورة قالت إنها لا تعرفه، وإنه عراف هندي أعطاها إياها وليست لديها أية فكرة عن اسمه. وكنت قد ندبت لهذه المهمة فتى أريبًا فطنًا. وقع لديه موقع الغرابة أن تكون هذه هي الصورة الوحيدة في المجموعة التي صنعت في كلكتا. ووجد على ظهرها رقمًا فأخذ الرقم في مفكرته وأعاد الصورة إلى الحقيبة كما كانت.

- ولكن كيف استطاع فتاك الأريب أن تصل يده إلى الصورة؟

فومضت عينا الكولونيل وقال:

- ليس هذا من شأنك، ولكني لا أرى مانعًا من التصريح لك بأنه كان فتى وسيمًا عقد معها صلة غرامية، وأخذت تطلعه على تذكاراتها. والمهم أننا عندما حصلنا على رقم الصورة أبرقنا إلى كلكتا فجاءنا الرد بأن عشيق جوليا هو شندرالال الذي كنا نظنه نقي الصفحة. وبعدها شددت الرقابة على جوليا، فلاحظت أنها تبدي ميلًا خاصًّا لفئة ضباط البحرية، وأنا شخصيًّا لا ألومها على ذلك لأن ضباط البحرية فيهم جاذبية. ولكن ليس من الحكمة أن نترك ذوات العفة الجريحة والجنسية المريبة يختلطن بهم كثيرًا في زمن الحرب، وفي زمن وجيز جمعت أدلة كثيرة ضدها.

- وكيف كانت توصل معلوماتها إلى الأعداء؟

لم تكن توصل معلوماتها إلى الأعداء، ولم تحاول ذلك، لم تكن جاسوسة فالألمان طردوها من بلادهم فعلًا، ولكنها كانت تعمل لحساب شندرالال شخصيًّا. وقد رتبت أمرها بعد انتهاء عقد عملها في إنجلترا أن تعود إلى هولندا لتلتقي به هناك، وتفضي إليه بكل ما جمعته من المعلومات. ولكنها لم تكن بارعة في عملها، بل كانت عصبية. ولكن طبيعة مهنتها أتاحت لها جمع معلومات قيمة. وفي إحدى رسائلها إلى شندرالال قالت له بخليطها اللغوي العجيب: «لديَّ الكثير لأفضي به إليك يا حبيبي الصغير. مما يهمك كثيرًا أن تعرفه» وكانت هذه الجملة الأخيرة بالفرنسية وقد وضعت تحتها خطًّا.

وسكت الكولونيل قليلًا وجعل يفرك يديه. وكان وجهه المجهد قد ارتسمت عليه أمارات سرور شيطاني بدهائه، ثم استطرد:

- وبطبيعة الحال لم يكن يهمني أمر تجسسها في قليل أو كثير لأن همي كله كان موجهًا إلى شندرالال. فبمجرد إلقاء القبض عليها دبرت من القرائن ما يكفي لإعدام فرقة كاملة من الجواسيس.

ووضع الكولونيل يديه في جيوبه وارتسمت على شفتيه ابتسامة كالحة، وهو يقول لي:

- وسجن هولوواي ليس جنة الفردوس كما تعلم.

- لا أظن أي سجن يمكن أن يكون جنة الفردوس!

- ولا سيما هذا السجن بالذات. وقد أعطيت التعليمات اللازمة وتركتها إلى أن «نضجت» مدة أسبوع، قبل أن أبعث في طلبها فوجدتها في حالة عصبية متداعية. وأخبرتني السجانة أنها أصيبت بنوبات هستيرية عنيفة معظم الوقت، فلا عجب أن بدت كالشبح.

- أهي جميلة؟

- ستراها بنفسك. وهي على كل حال ليست من النوع الذي يروق لي شخصيًّا. وأظنها تكون أجمل منظرًا عندما تتم زينتها وتضع المساحيق على وجهها. وقد خاطبتها بكل قسوة وأنزلت بها الرعب الجهنمي. وهي بطبيعة الحال نفت كل شيء. ولكن الأدلة كانت تحت يدي. وقد أفهمتها جيدًا أنه لا نجاة لها من العقوبة الصارمة. وقضيت معها ثلاث ساعات انتهت بانهيارها أمامي فاعترفت بكل شيء. وعندئذ وعدتها بإخلاء سبيلها إذا استدرجت شندرالال إلى الأراضي الفرنسية. فرفضت على الفور رفضًا باتًّا، وقالت إنها تفضل الموت على ذلك، وتشنجت أعصابها فتركتها تهرف، ثم قلت لها إني سأتركها لتخلو إلى نفسها وتفكر في اقتراحي مدة يومين. ولكني تعمدت أن أتركها أسبوعًا بأكمله. فلما

دعوتها لمقابلتي، وجدتها مستعدة لتنفيذ ما طلبته منها بغير مناقشة. فأفهمتها كل شيء بغاية الوضوح، وقبلت بلا معارضة.

- لم أفهم بالضبط ما ترمي إليه.

- حقًّا؟ أظن المسألة من أوضح ما يكون لأقل الناس ذكاء. فلو أنها استطاعت أن تستدرج شندرالال كي يعبر الحدود السويسرية إلى فرنسا فإني سأطلق سراحها وأوصلها بأمان إلى حدود إسبانيا أو إلى أمريكا الجنوبية على حسابنا الخاص.

- ولكن كيف بحق الشيطان يمكن أن تستدرج شندرالال للحضور؟

إنه مجنون بحبها، وفي أشد الشوق للقائها. وخطاباته إليها كما ترى تنم عن شغف جنوني. وقد جعلتها تكتب إليه قائلة إنه تعذر عليها الحصول على تأشيرة دخول إلى هولندا، حيث كان مقررًا أن تقابله. ولكنها تستطيع الحصول على تأشيرة دخول إلى سويسرا. وسويسرا بلد محايد يستطيع أن يأمن فيه على نفسه. وقد تلقف هذه الفرصة وأرسل بعدها باللقاء في لوزان.

- وبعد؟

وعندما يصل إلى لوزان سيجد خطابًا منها تبلغه أن السلطات الفرنسية رفضت أن تسمح لها باجتياز الحدود السويسرية. وأنها لهذا السبب قررت التوجه إلى تونون وهي البلدة الفرنسية التي تقابل لوزان على شاطئ البحيرة. وبينهما خط مواصلات بالزوارق البخارية كما تعلم. وتطلب منه أن يوافيها هناك في تونون.

- وما الذي يحدو بك إلى الاعتقاد بأنه سيلبي رغبتها؟

فسكت الكولونيل برهة ثم نظر إلى أشندن باسمًا، وقال:

- يجب أن تحمله على الحضور إلى هناك إذا كانت راغبة حقًّا في الإفلات من عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة.

- فهمت!

- إنها ستصل من إنجلترا هذا المساء تحت الحراسة. وأريد منك أن تصحبها إلى بلدة تونون في قطار الليل

فصاح آشندن قائلًا:

- أنا؟

- نعم أنت، لأني أظن هذا العمل من الأعمال التي تصلح لها جدًّا. فالمفروض أنك روائي، ولهذا تعرف عن الطبيعة البشرية أكثر مما يعرف أكثرية الناس. وسيكون من الممتع لك أن تقضي أسبوعًا أو أسبوعين في تونون. فهي مكان صغير جميل ومن الأماكن السياحية الراقية في زمن السلم. وتستطيع أن تستمتع هناك بالاستحمام!

فقاطعه أشندن قائلًا:

- وماذا تريد مني أن أصنع عندما أصل مع هذه السيدة إلى تونون، فيما عدا الاستحمام طبعًا؟

- إني أترك يدك مطلقة في التصرف. وكل ما هناك أني سجلت بضع ملاحظات قد تكون ذات فائدة لك في مهمتك. فهل أتلوها عليك؟

وأصغى أشندن بانتباه شديد. وكانت خطة الكولونيل سهلة واضحة. فلم يسع أشندن سوى الشعور مرغمًا بالإعجاب بالعقل الماكر الذي دبر هذا التدبير المحكم.

وبعد الانتهاء من التلاوة اقترح الكولونيل أن يخرجا معًا لتناول الغداء. وطلب من أشندن أن يأخذه إلى مكان يستطيعان فيه مشاهدة البارزين في الهيئة الاجتماعية.

وراق لأشندن أن يرى الكولونيل الصارم الحازم في عمله، يبدو مرتبكًا خجولًا في المطعم الفاخر. ثم يتكلم بصوت أعلى مما ينبغي قليلًا، ليحاول الظهور بمظهر من هو على سجيته.

إن حركاته كشفت لأشندن مدى الحياة الضيقة المتواضعة التي عاشها الكولونيل إلى أن رفعته مقدرات الحرب إلى هذه المكانة الخطيرة، وبدا عليه السرور العميق لوجوده في ذلك المطعم الأنيق ملاصقًا لأصحاب المجد، وأصحاب الأسماء الشهيرة في العاصمة الفرنسية. ولكنه كان كالتلميذ المراهق في أول بنطلون طويل يرتديه. وأغضى أمام عينى كبير السقاة البراقتين، وراحت نظراته تجوب أرجاء المطعم بعد ذلك في اغتباط وزهو لا يخلو من خجل يسير.

واسترعى أشندن انتباهه إلى امراة قبيحة ترتدي ثوبًا أسود ولكنها ذات قوام جميل وتزين نحرها بعقد طويل من اللآلئ، وقال له:

- هذه مدام دبريد. عشيقة الغراندوق تيودور، ولعلها من أعظم النساء نفوذًا في أوروبا. وهي يقينًا من أدهاهن

ونظر إليها الكولونيل قليلًا ثم احمر وجهه وقال:

- هذه هي الحياة وايم الحق!

ورمقه أشندن صامتًا. فالترف شيء خطير التأثير على من لم يألفوه. إن إغراءه شديد على من يفاجأون به. فها هو ذا الكولونيل الحصيف الداهية وقد سلب لبه هذا المنظر البراق الذي أمامه.

وبعد أن فرغا من تناول غدائهما، وشرعا يشربان القهوة وقد ارتسمت علامات الرضا التام على وجه الكولونيل، عاد أشندن إلى الموضوع:

- هذا الهندي لا بد أنه شخصية ممتازة؟

- إنه ذكي العقل طبعًا.

- إن الإنسان لا يمكن أن يخلو من الإعجاب برجل استطاع أن يناصب في شجاعة وبمفرده تقريبًا السلطة البريطانية في الهند.

فقال الكولونيل بلهجة قاطعة:

- لو كنت في مكانك لما أضفيت عليه شيئًا من عواطفي. فهو في الواقع ليس سوى مجرم خطير. إنه كان يستخدم القنابل الزمنية في إزهاق أرواح بريئة.

فقال أشندن:

- لا أظن أنه كان يعمد إلى استخدام القنابل الزمنية أو غير الزمنية لو كان تحت يده بضعة ألوية. إن الرجل يستخدم الأسلحة التي تتاح له. ولا أخالك تعيب عليه ذلك، ولا سيما أنه بعد كل حساب لا يرمي إلى هدف شخصي. أليس كذلك؟ إنه يرمي إلى تحرير وطنه. وكل جريرته أننا نحتل ذلك الوطن. فكل شيء يدل على أن له في تصرفاته نحونا ما يبررها تبريرًا قويًّا.

وكأنما كان أشندن يتكلم لغة صينية! فقد قال الكولونيل:

ـ هذا تخريج فيه تعسف شديد للأمور. وهذه على كل حال موضوعات لا نستطيع أن نخوض فيها. ومهمتنا أن نضع يدنا عليه. ومتى تم لنا ذلك نقتله رميًا بالرصاص.

فلم يسع أشندن إلا أن يقول:

- طبعًا طبعًا. لقد أعلن علينا الحرب ويجب أن يتحمل تبعة ذلك. وأنا من جهتي سأنفذ تعليماتك بدقة. هذا هو واجبي. ولكني لا أرى مانعًا مع ذلك من الإعجاب بالرجل واحترامه.

فنظر الكولونيل إلى أشندن وقد عادت إليه صرامته وحزمه وقال:

- لست واثقًا أيهما أصلح لهذا الطراز من المهام. أهو الرجل الذي ينفعل بما يمارسه من عمل، أم الذي لا تتحرك عواطفه بشيء، وهناك من يشفي غليلهم الإيقاع بأحد أعداء الوطن، كأنها خدمة شخصية أديت لهم أو ثأر شخصي أخذوه. ومثل هؤلاء يؤدون عملهم بحماسة، أما أنت فالمسألة في نظرك لا تعدو لعبة رياضية، أو مباراة شطرنج من غير حقد على الأعداء والخصوم، بل ومع الإعجاب بهم أحيانًا. ولكن طرازك يصلح لمهام معينة أكثر من سواها.

ولم يجب أشندن، ودفع حساب الغداء ثم أفل راجعًا مع الكولونيل إلى الفندق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن
چـــــــوليـــــــا

كان موعد انطلاق القطار في الساعة الثامنة. فلما فرغ أشندن من ترتيب حقائبه أخذ يذرع إفريز المحطة، ووجد جوليا لازاري في إحدى عربات القطار. ولكنها كانت جالسة في ركن مشيحة عن مسقط الضوء فلم يستطع أن يتبين وجهها، وكانت في حراسة اثنين من رجال البوليس السري الفرنسي، تسلماها من رجال البوليس الإنجليزي في بولونيا، وكان أحد الشرطيين قد عمل مع أشندن في منطقة الحدود الفرنسية المشرفة على بحيرة جنيف.

فأومأ لأشندن بالتحية ثم قال:

- سألت السيدة إن كانت تحب أن تتناول العشاء في عربة الطعام ولكنها فضلت أن تتناوله هنا ولهذا طلبت من عربة الطعام إعداد سلة للعشاء. فهل هذا الإجراء صائب؟

- نعم.

- وسنتناوب أنا وزميلي الذهاب إلى عربة الطعام بحيث لا تبقى السيدة وحدها...

- أحسنت. وسأحضر من عربتي بعد قيام القطار لأجاذبها أطراف الحديث قليلًا.

فقال المخبر:

- إنها ليست مستعدة تمامًا للانطلاق في الكلام.

- لست أتوقع منها ذلك الاستعداد.

وانصرف أشندن فتناول طعامه. وكانت جوليا لازاري تختم طعامها عندما عاد إليها. وبنظرة خاطفة إلى سلة الطعام أدرك أن شهيتها للطعام لم تكن ضئيلة للغاية. وأومأ أشندن إلى المخبر الذي فتح الباب فتركهما وحدهما.

ورمقته جوليا بنظرة شذراء. فقال وهو يجلس قبالتها:

- أرجو أن يكونوا قد أحضروا لك كل ماطلبته من ألوان الطعام؟

فأحنت رأسها ولم تتكلم. فأخرج علبة سجائره وقال لها:

- ألك في سيجارة؟

فألقت عليه نظرة ثم ظهر عليها التردد، وبعد ذلك تناولت سيجارة من غير أن تنطق بكلمة. وأشعل أشندن عود ثقاب فأوقد سيجارتها، وانتهز الفرصة لينظر إلى وجهها في ضوء الثقاب. واستولت عليه الدهشة. فهو لسبب ما كان يتوقع أن يجدها شقراء. ولعل ذلك لاعتقاد سابق لديه أن المشارقة أحرى أن تستهويهن الشقراوات، ولكنها سمراء داكنة تقريبًا، وشعرها تخفيه قبعة ضيقة، ولكن عينيها سوداوان كأنهما قطعتان من الفحم الحجري. ولم تكن صغيرة السن. فلعلها كانت في الخامسة والثلاثين. وبشرتها كثيرة الغضون كالحة. كما كان وجهها خاليًا تمامًا من المساحيق، فبدت في منظر منهدم، ولم يكن في مرآها شيء جميل سوى عينيها الرائعتين.

وكان جسمها ضخمًا بحيث ظن أشندن أنها لا يمكن أن تؤدي بهذا الجسم رقصاتها في رشاقة، ولا سيما إذا ارتدت ثياب الرقص الإسبانية. ولكن لعل أضواء المسرح، وثياب الرقص الزاهية، تضفي عليها شيئًا من الفتنة. أما وهي على هذه الحالة في القطار، فلا يمكن أن يتصور المرء سر هيام ذلك الثائر الهندي بها...

وعلى ضوء الثقاب رمقت أشندن بنظرة تحاول بها سبر غوره فهي بغير شك كانت تتساءل فيما بينها وبين نفسها أي طراز من الرجال عساه يكون.

ونفثت سحابة من الدخان من أنفها، وأخذت تتابع تلك السحابة بنظراتها برهة، ثم ردت بصرها إلى أشندن. واستطاع أن يفطن إلى أن هدوءها ليس إلا قناعًا. وأنها في الواقع كانت متوترة الأعصاب مرتاعة. وكانت تتكلم الفرنسية بلهجة إيطالية. قالت:

- من أنت؟

- اسمي لا يعني شيئًا بالنسبة لك يا سيدتي. حسبك أن تعلمي أنني ذاهب إلى تونون. وقد حجزت لك غرفة في فندق لابلاس وهو الفندق الوحيد الذي يفتح أبوابه هناك في هذا الفصل من السنة. وأعتقد أنك ستجدين الإقامة فيه مريحة.

- آه! أنت إذن الذي حدثني الكولونيل عنك. أنت سجاني.

- من الناحية الشكلية فقط، ولن أتطفل عليك.

- أنت سجاني على كل حال...

- وأرجو على كل حال ألا يدوم ذلك مدة طويلة. فإني أحمل في جيبي جواز سفرك وقد استكملت فيه جميع الإجراءات الشكلية والرسمية للسماح لك بالسفر إلى إسبانيا.

فألقت بنفسها إلى ركن العربة، وظهر على وجهها الشاحب وعينيها السوداوين الكبيرتين منتهى اليأس، ثم قالت:

- هذا شىء فظيع. وأظنني كنت أموت سعيدة لو أنني استطعت أن أقتل ذلك الكولونيل العجوز. إنه رجل بلا قلب. ما أشقاني!

- أخشى أن تكوني قد أوقعت نفسك في مأزق شديد الحرج. ألم تكوني تعلمين أن الجاسوسية لعبة خطرة؟

- إني لم أبع أي سر من أسراركم. لم أرتكب سوءًا.

- وذلك يقينًا لأنه لم تتح لك الفرصة. وأنت فيما فهمت قد وقَّعت على اعتراف كامل مفصل.

وكان أشندن يتحدث إليها بأرق ما يستطيع من عبارة، وكأنه إلى حد ما يتحدث إلى شخص مريض. فلم تكن في صوته أدنى خشونة.

- أجل كنت مغفلة إلى حد كبير فكتبت الخطاب الذي حملني الكولونيل على كتابته. فلماذا لا يكتفي بذلك؟ ما الذي يحدث لي إن لم يجب؟ أنا لا أستطيع أن أكرهه على الحضور إن كان لا يريد أن يحضر.

فقال لها أشندن:

- لقد وصل رده بالفعل، وأنا أحمله معي.

فأجفلت واضطرب صوتها وقالت:

- أوه. أرني جوابه. أتوسل إليك أن تدعني أطلع عليه.

- ليس عندي مانع من ذلك. ولكن يجب أن تعيديه إليَّ بعد تلاوته.

- أعدك بذلك.

وأخرج خطاب شندرالال من جيبه وأعطاها اياه. فاختطفته من يده اختطافًا والتهمته بعينيها. وكان ثماني صفحات. وأخذت الدموع وهي تقرأ تنهمر على وجنتيها. وفيما بين شهقاتها وزفراتها كانت تتمتم بعبارات الحب، وتنادي الكاتب بأعذب أسماء التدله والتحبب بالفرنسية والإيطالية، وكان ذلك الخطاب هو الذي كتبه شندرالال، ردًّا على خطابها الذي قالت له فيه بناء على تعليمات الكولونيل إنها ستقابله في سويسرا. فكاد يجن من الفرح بتلك الفرصة، وعبر لها في صفحات خطابه الملتهبة عن بطء الوقت وطوله عليه منذ افترقا، وكيف كان يصبو إليها، ويتحرق شوقًا إلى رؤياها. والآن وقد تقرر أن يلتقي بها مرة أخرى قريبًا فهو لا يدري كيف سيتسنى له أن يتحمل الانتظار وقد عيل صبره.

وما أن أتمت تلاوة الخطاب حتى انفرجت أصابعها فسقط على الأرض، وقالت في يأس شديد:

- هأنتذا ترى كم يحبني. ألست ترى ذلك؟ ما من شك في هذا. صدقني فأنا ذات خبرة في هذا الأمر.

وعندئذ سألها أشندن:

- وأنت؟

- ماذا تعني؟

- وأنت هل تحبينه حقًّا؟

- إنه الرجل الوحيد الذي كان عطوفًا عليَّ. وليست الحياة التي يحياها من يعملون في الملاهي بالحياة المرحة المريحة. فهم يتنقلون في جميع ارجاء أوروبا، ولا يستقرون أبدًا. والرجال الذين يترددون على تلك الأماكن ليسوا دائمًا من ذوي الرجولة. لذا ظننت في البداية أنه رجل كالآخرين من الرواد...

انتظارهما، فطلب منها أشندن بكل أدب أن تركبها. وكانت الرحلة إلى الفندق طويلة شيئًا ما. وبين الحين والحين كان يشعر بأنها ترمقه بنظرة جانبية، رغم أنها كانت بادية الحيرة.

أما أشندن فجلس صامتًا لا ينطق بكلمة. ولما وصلا إلى الفندق الصغير القائم وسط منظر بديع للغاية، صحبهما المدير إلى الحجرة التي أعدت لنزول مدام لازاري. فقال له أشندن بعد أن تفقدها:

- إنها على ما يرام. سأنزل بعد دقيقة.

فانحنى مدير الفندق وانسحب وتركهما وحدهما. وعندئذ قال أشندن:

- سأبذل كل ما في وسعي لتوفير أسباب الراحة لك يا سيدتي. وثقي أنك هنا سيدة نفسك، ومن حقك أن تطلبي أي شيء تصبو نفسك إليه، وأنت في نظر مدير الفندق نزيلة كأي نزيل آخر في الفندق. أنت حرة تمام الحرية.

فسألته بسرعة:

- وحرة أيضًا في الخروج؟

- طبعًا. لك أن تخرجي كما تشائين.

فقالت متهكمة:

- وعلى كل جانب من جانبيَّ شرطي فيما أعتقد!

- كلا، لك مطلق الحرية في هذا الفندق كأنك في منزلك تمامًا. وأنت حرة في الخروج من الفندق والعودة إليه كلما راق لك ذلك. وأحب أن أحصل منك على تأكيد بأنك لن تكتبي خطابات بغير علمي. ولا أن تحاولي مغادرة تونون من غير إذني.

فرمقت أشندن بنظرة طويلة ولم تستطع أن تسبر غوره ولا أن تفهم سر هذا التيسير، وبدا عليها كأنها في حلم، ثم قالت:

- إني في موقف يرغمني على تقديم جميع التأكيدات التي تطلبها مني. لذا أعدك وعد الشرف أني لن أكتب خطابًا من غير أن أطلعك عليه، ولن أحاول مغادرة هذه البلدة.

- شكرًا لك. والآن سأتركك. وسوف يسعدني أن آتي لزيارتك غدًا صباحًا. طاب يومك.

وأحنى أشندن رأسه ثم انصرف. ومر بمركز الشرطة فقضى فيه خمس دقائق ليتأكد من أن جميع الترتيبات على ما يرام ثم ركب العربة، وصعد التل إلى بيت منعزل عند مشارف البلدة كان ينزل فيه كلما جاء إليها في زياراته الدورية.

وطاب له أن يستحم ويحلق ذقنه، ويريح قدميه في الخُف الرخو وشعر برغبة في الاسترخاء فقضى بقية الصباح يطالع قصة.

وفي جنح الظلام جاءه شرطي من مركز الشرطة اسمه فليكس. وكان قدومه في الليل بسبب الرغبة في عدم لفت الأنظار إلى أشندن حتى وهو في الأراضي الفرنسية. وكان فليكس فرنسيًّا قصير القامة أسمر اللون، له عينان ثاقبتان وذقن غير حليق، ويرتدي بدلة رمادية اللون بعيدة عن الأناقة والجدة، فكان مظهره أشبه بكاتب محامٍ متعطل.

وقدم أشندن إلى هذا الجندي كأسًا من النبيذ وجلس الاثنان بجوار نار المدفأة، ثم قال فليكس:

- إن تلك السيدة لم تضيع وقتها سدى. فبعد وصولها إلى الفندق بربع ساعة غادرته ومعها حزمه من الثياب والحلي الرخيصة فباعتها في دكان قريب من سوق البلدة. ولما وصل الزورق بعد الظهر إلى الميناء ذهبت إلى الرصيف وابتاعت تذكرة إلى إيفيان.

وإيفيان هي المكان التالي لتونون في الأراضي الفرنسية على شاطئ بحيرة لوزان. ومن هناك يعبر الزورق البحيرة إلى الأراضي السويسرية.

واستطرد فليكس:

- ولمَّا كانت بطبيعة الحال لا تحمل جواز سفر لم يسمحوا لها بركوب الزورق.

- ولكن كيف فسرت عدم حصولها على جواز سفر؟

- قالت إنها نسيته. وقالت إنها على موعد لمقابلة أصدقاء لها في إيفيان، وحاولت أن تقنع الموظف المختص بتركها تسافر. بل وحاولت أيضًا أن تدس في راحة يده مئة فرنك.

فقال أشندن:

- لا بد أنها أغبى مما كنت أتصور.

ولما توجه في اليوم التالي في نحو الساعة الحادية عشرة صباحًا لمقابلتها لم يشر من قريب أو بعيد إلى محاولتها الفرار. وكانت الفرصة قد أتيحت لها كي تنسق مظهرها فوجد شعرها مرجلًا ترجيلًا تامًّا بعناية فائقة. وقد طلت شفتيها وخديها، وبدت أحسن مظهرًا بكثير مما رآها لأول مرة.

وقال لها أشندن:

- لقد أحضرت إليك بضعة كتب.

- لماذا؟

- أخشى أن يكون الوقت بطيئًا ثقيل الوطأة عليك.

- وماذا يضيرك من ذلك؟

- ليست لديَّ رغبة على الإطلاق في أن تعاني أي نوع من الألم أستطيع تجنيبك إياه. وسأترك لك هذه الكتب على كل حال وفي استطاعتك أن تقرئيها أو لا تقرئيها على حسب ما يتراءى لك.

- آه لو علمت كم كرهتك!

- إن هذا طبعًا لا يسعدني، ولكني في الحقيقة لا أرى مبررًا لحقدك عليَّ. فأنا أؤدي الواجب المفروض عليَّ وأنفذ الأوامر ليس إلا.

فسألته باقتضاب:

- ماذا تريد مني الآن؟ فلا أخالك جشمت نفسك الحضور لكي تطمئن على صحتي فحسب!

فابتسم أشندن وقال:

- أريد منك أن تكتبي خطابًا إلى حبيبك تقولين فيه، إنه بسبب نقص بعض الإجراءات الشكلية في جواز سفرك رفضت السلطات السويسرية أن تسمح

لك باجتياز الحدود، ولهذا جئت إلى هنا حيث الموقع جميل جدًّا وهادئ جدًّا، هادئ إلى درجة يصعب معها أن يصدق الإنسان بأن هناك حربًا عالمية. وتختمين رسالتك بأن تقترحي على شندرالال الحضور كي يلحق بك هنا.

فرمقته جوليا بنظرة حادة وقالت:

- وهل تظن شندرالال أبله؟ إنه سيرفض الحضور.

- في هذه الحالة يجب عليك أن تبذلي أقصى ما في وسعك لإغرائه بالحضور.

فنظرت جوليا إلى أشندن طويلًا من غير أن تجيب. وخامره الظن بأنها كانت تتداول في الأمر بينها وبين نفسها. فلعلها بكتابة الخطاب المطلوب والتظاهر بالرضوخ التام تكسب فسحة من الوقت.

وأخيرًا قالت جوليا:

- حسنًا. أملِ عليَّ وسأكتب ما تريد.

فابتسم أشندن ابتسامة ماكرة وقال:

- بل أفضل أن تكون الرسالة من إنشائك وبطريقتك الفريدة المعتادة بينكما.

- امنحني نصف ساعه وسيكون الخطاب معدًّا.

فقال أشندن بهدوء:

- سأنتظر هذه النصف ساعة هنا.

فسألته بدهشة.

- لماذا؟

فقال بهدوء حازم:

- لأني أوثر ذلك.

فومضت عيناها بنار الغضب، بيد أنها تحكمت في أعصابها ولم تقل شيئًا. وكانت على منضدتها أدوات للكتابة، فجلست وبدأت تكتب.

ولما قدمت إلى أشندن الخطاب بعد فراغها من تحريره لاحظ أن شحوبها كان واضحًا تحت طلائها الأحمر الثقيل.

وكان الخطاب خطاب شخص لم يتعود كثرة استعمال الحبر في التعبير عن نفسه. ولكن الخطاب كان وافيًا بالغرض. وكانت عبارات الحب نابضة بالحياة والصدق، وضغط أشندن على أعصابه و قال لها:

والآن أضيفي هذه العبارة.

- قل.

- “إن الذي يحمل إليك رسالتي رجل سويسري في وسعك أن تطمئن إليه طمأنينة مطلقة. فإني لم أحب أن يتعرض خطابي هذا لعيون الرقابة على البريد».

وسألته في هجاء بعض الكلمات فقال لها:

- اكتبيها بهجائك الخاص. والآن اكتبي العنوان على مظروف بخطك وبعدها سأخلصك من سحنتي.

وسلم أشندن الخطاب إلى أحد عملائه السويسريين الذي كان ينتظر كي يحمله عبر البحيرة. وفي مساء ذلك اليوم نفسه أتاها أشندن بالرد فانتزعته من يديه وضغطته فوق قلبها لحظة قبل أن تطالعه. ولما طالعته أطلقت صرخة ارتياح:

- لن يأتي.

وكان الخطاب مكتوبًا بتلك الإنجليزية المزركشة الأسلوب، وقد عبر فيها الهندي عن خيبة أمله المريرة وكيف أنه كان يتطلع في شوق ولهفة إلى لقائها. وتوسل إليها توسلات حارة أن تفعل كل ما يمكن في تذليل العقبات التي حالت بينها وبين عبور الحدود السويسرية. وأكد لها أنه من المستحيل عليه أن يأتي إلى فرنسا بأية صورة. فهناك ثمن غالٍ في صورة جائزة لمن يأتي برأسه حيًّا أو ميتًا. ومن الجنون أن يجازف برأسه، ثم أردف ذلك بعبارة مازحة:

“ولا أظنك راغبة في أن يعدم بالرصاص حبيبك الأسمر البدين يا ريحانة قلبي».

وعادت جوليا تقول في سرور فائق:

- لن يأتي. لن يأتي.

- يجب أن تكتبي إليه مرة أخرى لتؤكدي له أنه لا مخاطرة على الإطلاق.

- لن يصدقني.

- سيصدقك إذا قلت له إنه لو كانت هنا أية مخاطرة لما جال بفكرك لحظة واحدة أن تطلبي منه القدوم. وقولي له أيضًا إنه إن كان يكنَّ لك حبًّا صادقًا فلن يتردد هكذا في الاجتماع بك وأنت على بعد كيلومترات قليلة.

- لن أكتب إليه شيئًا من هذا.

- لا تكوني بلهاء. فكري في مصيرك؟

فانفجرت فجأة تبكي بدموع غزيرة. ثم ألقت بنفسها على الأرض وتعلقت بركبتي أشندن متوسلة إليه أن يرحمها:

- أنا على أتم استعداد أن أبذل لك أي شيء في الدنيا إن أنت تركتني أذهب لحال سبيلي أذهب إليه.

فقال أشندن:

- ما أسخفك، أتظنينني أريد أن أكون عشيقك؟ أصغي لصوت العقل وفكري في مصيرك.

فنهضت واقفة على قدميها وتبدلت فجأة من النقيض إلى النقيض، تبدلت من التوسل والتضرع إلى الغيظ والنقمة والغضب وأخذت تقذف في وجه أشندن بأقذع أنواع السباب والنعوت كالسيل الجارف. فقال:

- أنا أفضل سبابك على توسلاتك. ذلك أفضل لي. والآن إما أن تكتبي كما أمرتك أو أرسل في طلب الشرطة!

- ولكنه لن يأتي. كل هذا مجهود ضائع.

فقال أشندن بإصرار:

- من مصلحتك أن تغريه بالحضور.

فنظرت إليه بدهشة وقالت:

- ماذا تعني بذلك؟ أتعني أنني حتى لو بذلت كل ما في وسعي وفشلت فمع ذلك سوف...

وظهر الذعر في عينيها ولم تجسر على إتمام عبارتها. فأومأ أشندن برأسه في هدوء وحزم وقال:

- نعم. إما هو وإما أنت؟

فترنحت. ورفعت يدها إلى قلبها. ثم مدت يدها من غير أن تنطق إلى القلم والورق، وسطرت خطابًا لم يرق في نظر أشندن فحملها على إعادة المحاولة. ولما فرغت منه ارتمت فوق الفراش وانفجرت مرة أخرى في نوبة عاصفة من البكاء.

كان حزنها صادقًا، ولكن تعبيرها عنه كان لا يخلو من عنصر مسرحي. وذلك ما خفف من وطأة تأثيرها على أشندن.

وساعد أشندن على تحمل الموقف أنه كان ينظر إليها نظرة خالية من العامل الشخصي كنظرة الطبيب إلى ألم يعجز طبه عن تخفيفه. وأدرك الآن لماذا اختاره الكولونيل لهذه المهمة بالذات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع
ثورة عارمة

ولم يرها اشندن في اليوم التالي. فإن الرد على خطابها لم يسلم اليه الا بعد وجبة العشاء، عندما أحضره فليكس الى بيت اشندن الصغير. وسأل أشندن الشرطي الفرنسي:

- ماذا وراءك من الاخبار؟

فابتسم الفرنسي، وقال:

- ان صاحبتنا بدأ اليأس يستولي على قلبها. وبعد ظهر اليوم سارت الى المحطة في اللحظة التي كان أحد القطارات يتأهب فيها للرحيل الى ليون. ورأيتها تنظر في طول الرصيف وعرضه في تردد. فاتجهت نحوها وسألتها بكل أدب وحزم إن كانت في حاجة الى اي شيء استطيع ان اؤديه لها. وقدمت لها نفسي باعتبارى مخبرا في ادارة الأمن العام

- وماذا قالت لك؟

فازدادت ابتسامة الفرنسي اتساعا وهو يقول:

اقسم لك لو أن النظرات كانت كافية للقتل، لما وجدتني الآن واقفا بين يديك!

فقال اشندن:

- اجلس يا صديقي

- شكرا لك، وما كان منها بعد ذلك إلاّ أن انصرفت من المحطة، وكان واضحا انها ايقنت بعبث محاولة ركوب القطار. ولكنها لم تقف مكتوفة اليدين. بل هناك شيء مثير حقا للاهتمام اقدمت عليه تلك السيدة، واريد ان افضي به اليك

- وما هو؟

- عرضت ألف فرنك على نوتي يملك قاربا فوق بحيرة لوزان كي يعبر بها البحيرة الى الشاطئ السويسري!

فظهر الاهتمام على وجه اشندن وقال له:

وماذا كان رد النوتي؟

- انه لا يستطيع الإقدام على هذه المخاطرة

- وبعد؟

فهز المخبر الفرنسي كتفيه وابتسم قائلا:

- فطلبت اليه أن يقابلها على الطريق المفضي الى ايفيان في الساعة العاشرة من هذه الليلة، كي تستأنف مفاوضته في هذا الموضوع. وقد لمحت له من طريق خفي بأنها لن ترفض بكل أباء وشمم رغبته في الاختلاء بها اختلاء غراميا. ولما قال لي الرجل ذلك قلت له انني لا أبالي ماذا يكون بينه وبينها، فذلك شأنه وحده مادام سيأتي بعدها ويفضي اليّ بكل ماله أهمية من الحديث

وسأله اشندن عندئذ:

- هل أنت متأكد بأنه أهل للثقة؟

- جدا. فهو لا يعرف شيئا بالطبع سوى انها تحت رقابة شرطة الأمن. فلا حاجة بك إلى القلق من جهته، أنه فتى يعتمد عليه، وقد عرفته منذ طفولته

وقرأ أشندن رسالة شندرالال فإذا بها تفيض باللهفة والهيام هيامًا حقيقيًّا يدل على حب صادق كأصدق ما يعرفه أشندن عن الحب عند الناس. وقد حدثها في الخطاب كيف يجد الساعات طويلة وهو يقضيها في السير على قدميه على شاطئ البحيرة، وعيناه متعلقتان بالشاطئ الآخر، شاطئ فرنسا؟ وكيف أنهما قريبان غاية القرب، وبينهما مع ذلك أقسى حائل عازل.

وحدثها مرة أخرى في عبارات كثيرة مكررة المعنى أنه لا يستطيع أن يأتي إليها. وتضرع إليها ألا تلح في ذلك الطلب. فهو خليق أن يقدم على أي شيء في الدنيا من أجلها، أما هذا فلا يجسر على الإقدام عليه. ومع ذلك فلو ألحت فكيف عساه يجد قدرة في نفسه على المقاومة؟

وتوسل إليها أن تشفق عليه، ثم أطلق صرخة ألم ممضٍّ في عبارات طويلة مؤثرة لأنه يجب أن يرحل من غير أن يراها. وسألها أن تبحث عن أية وسيلة للتسلل من الحدود والحضور إليه. ثم أقسم أنه لو أتيح له أن يضمها بين ذراعيه لما أفلتها ولا سمح أن يكون بينهما فراق ما دام حيًّا.

كانت عباراته ملتهبة تكاد تحرق صفحات خطابه، كانت رسالة رجل سلب الألم عقله...

وسأل أشندن المخبر الفرنسي:

- ومتى تتوقع أن تسمع نتيجة مقابلتها مع النوتي؟

فقال الفرنسي:

- لقد رتبت معه الأمر بحيث أقابله في الميناء فيما بين الحادية عشرة ومنتصف الليل.

فقال أشندن وهو ينهض:

- سآتي معك.

ومشى الاثنان فهبطا التل الذي يقوم على قمته البيت المنعزل، ثم عرجا على الميناء ووقفا بالقرب من إدارة الجمرك. وبعد برهة من الانتظار أقبل نحوهما رجل، فخرج فليكس من الظل الذي يُخْفيهما وقال:

- أنطوان؟

فأجاب القادم:

- مسيو فليكس؟ معي شيء لك.

- ماذا تعني؟

- أعني أنه شيء يهمك الحصول عليه.

- ما هو؟

- خطاب وعدت أن أحمله إلى لوزان بنفسي على أول زورق يقلع من هنا في الصباح.

ولم يحاول أشندن أن يسأل الرجل ماذا جرى بينه وبين جوليا لازاري حتى قبل أن يؤدي لها هذه الخدمة السرية. وتناول الخطاب ثم استعان بمصباح فليكس الكهربائي على قراءته، وكان مكتوبًا بلغة ألمانية ركيكة كثيرة الأغلاط على قلة كلماته:

«لا تحضر لأي سبب وبأي شكل. تحفظ على رسائلي. هناك خطر يحيق بك. أحبك. وإياك يا حبيبي أن تحضر».

ووضع أشندن الرسالة الصغيرة في جيبه ثم أعطى النوتي خمسين فرنكًا، وعاد إلى بيته كى ينام.

وفي اليوم التالي ذهب أشندن لزيارة جوليا لازاري فوجد باب حجرتها بالفندق مقفلًا بالمفتاح. وظل يطرق الباب برهة فلم يتلقَ جوابًا. فراح يناديها وهو يهز الباب:

- مدام لازاري! يجب أن تفتحي الباب. أريد أن أتحدث إليك.

فجاء صوتها من الداخل:

أنا في الفراش مريضة ولا أستطيع أن أقابل أحدًا.

فقال أشندن بإصرار:

- يؤسفني هذا ولكن يجب أن تفتحي الباب.

- قلت لك إني مريضة.

- إذن سأرسل في طلب الطبيب.

- انصرف. قلت لك لن أقابل أحدًا فلا تتعب نفسك!

- إن لم تفتحي الباب سأرسل في طلب صانع الأقفال كي يفتحه عنوة.

وساد الصمت برهة ثم سمع صرير المفتاح يدور في القفل ودخل أشندن فرآها في ثوب النوم وشعرها مشعث. فكان واضحًا أنها خرجت لتوها من الفراش.

ونظرت إليه بانكسار، وقالت:

- لقد استنفدت قوتي ولا طاقة لي بعمل شيء. يكفي أن تنظر إلى سحنتي لتعرف أني مريضة. والواقع أني كنت مريضة أشعر بغثيان طول الليل. لم أستطع أن أنام. رأسي يكاد ينفجر.

فقال أشندن:

- لن أستبقيك طويلًا. اتحبين أن ندعو طبيبًا؟

فمطت شفتيها وقالت بأسى:

- وماذا يستطيع أن يفعل لي الطبيب؟

فأخرج أشندن من جيبه الخطاب الذي كانت جوليا قد أعطته للنوتي وقدمه إليها قائلًا:

- ما معنى هذا؟

فشهقت عندما رأت رسالتها واخضر لون وجهها الشاحب فقال أشندن:

- لقد أعطيتني وعد الشرف أنك لن تحاولي الهرب أو إرسال خطاب إلى حبيبك من غير علمي.

فصرخت في غيظ واحتقار:

- وهل خطر ببالك أنني سأبر بوعدي حقًّا؟

فقال أشندن بهدوء:

- كلا. ولا أكتمك أننا لم ننزلك في هذا الفندق المريح بدلًا من حبسك في أحد السجون المحلية حرصًا على راحتك الشخصية فحسب، بل إنه من الجائز لي أن أصارحك الآن أنك وإن كنت مطلقة الحرية في الدخول والخروج كما تشائين، إلا أنك لا تستطيعين الإفلات من تونون كما لو كنت مقيدة بالسلاسل في زنزانة سجن. فمن البلاهة أن تضيعي وقتك في كتابة خطابات لن تصل إلى حيث تريدين.

فصاحت في وجهه بأقصى قوتها:

- يالَكَ من خنزير قذر!

فلم يكترث وقال لها بهدوء حازم:

- ينبغي عليك أن تجلسي الآن لتكتبي خطابًا سيصل إلى حيث نريد!

- كلا. لن أفعل شيئًا أكثر مما فعلت. لن أكتب كلمة أخرى.

فقال أشندن:

- ولكنك جئت معي إلى هنا على أساس أنك ستفعلين أشياء معينة.

فهزت كتفيها وقالت:

- ولكني لن أفعلها. انتهينا!

فاستعان أشندن بمزيد من الصبر وقال بلهجة لا تخفى فيها نبرة الوعيد:

- من الخير لك أن تفكري في الأمر قليلًا؟

فصاحت وعيناها تومضان بالحقد:

- أفكر قليلًا؟ وهل كنت أصنع شيئًا سوى التفكر؟ لقد فكرت. ولك أن تصنع بي ما تشاء. فلست أبالي

ولم يفارق أشندن هدوؤه وقال:

- جميل جدًّا. سأمنحك خمس دقائق مهلة تغيرين فيها رأيك. وأخرج ساعته من جيبه وأخذ ينظر إليها ثم جلس على حافة السرير وظل صامتًا. فضاقت بذلك الصمت وأخذت تقول:

- لقد أتعب أعصابي وجودي في هذا الفندق. لماذا لم تودعوني غيابة السجن؟ لماذا؟ لماذا؟ إن هذه الحرية الظاهرية التي أتمتع بها هنا تكاد تطير صوابي. حرية في الدخول والخروج ولكني أحس في كل مكان وكل خطوة بالجواسيس في أعقابي. إن ما تصنعونه بي فظيع ومشين مخجل! ألا خبرني

ما هي جريمتي؟ إني أسألك ما جريرتي؟ ماذا صنعت حتى استوجبت هذا كله؟ ألست امرأة؟ إن ما تطلبون مني أن أصنعه فظيع وشائن!

وكانت تتكلم بصوت مرتفع مشدوخ. وظلت تتكلم تباعًا إلى أن انتهت الدقائق الخمس وأشندن ساكت لا ينطق بحرف. ثم نهض واقفًا فصرخت في وجهه:

- نعم اذهب! انصرف عني؟

وأخذت تقذفه بسباب بذيء لا يصلح للنشر، فقال بهدوء:

- ولكني سأعود!

وعندما خرج من الباب أغلقه بالمفتاح من خلفه. ثم نزل السلم مسرعًا إلى البهو فكتب رسالة على عجل ونادى ماسح الأحذية فأرسله بها إلى مركز الشرطة. ثم صعد السلم مرة أخرى.

وكانت جوليا لازاري قد ألقت بنفسها على الفراش وأدارت وجهها إلى جهة الحائط. وجسمها يهتز بنحيب هستيري، ولم تظهر عليها أية علامة تفيد أنها سمعته يدخل. فجلس أشندن فوق مقعد مواجه لمائدة الزينة وأخذ ينظر إلى الأدوات المختلفة المتناثرة فوقها.

ولاحظ أن مواد الزينة التي كانت تستعملها رخيصة وليست مرتبة ولا نظيفة. فهناك بقع كثيرة من الأحمر والكريم البارد متناثرة على المائدة مع لطخ من الكحل الذي يستخدم للحواجب والرموش أما دبابيس الشعر فكانت قبيحة الشكل مغطاة بطبقة دهنية.

والواقع أن الحجرة كلها كانت على شيء من الفوضى، والهواء فيها ثقيل بما يحمله من رائحة العطر الرخيص. وفكر أشندن في مئات الحجرات التي لا بد أنها نزلت فيها بفنادق الدرجة الثالثة، في خلال حياة التجوال التي عاشتها من بلدة ريفية إلى أخرى في قطر بعد قطر. وتساءل عن أصل نشأتها. إنها الآن امرأة خشنة سوقية، ولكن كيف تراها كانت إبان صباها؟ إنها ليست من ذلك الطراز من النساء الذي ينتظر منه السير في طريق الفن. لأنه من الواضح أنها لا تتمتع بأي شيء من المزايا التي تؤهلها لذلك. ثم خطر بباله أنها ربما كانت منحدرة من أسرة لاعبي سيرك. ففي جميع أنحاء العالم عائلات من لاعبي السيرك كان أبناؤهم بالوراثة يحترفون الفن، لأنهم ولدوا في رحابه. أو لعلها كانت عشيقة أحد الممثلين الصغار فأدخلها حظيرة الرقص.

كم من الرجال عرفت في حياتها طيلة تلك السنين؟ ما بين زملاء في التمثيل والاستعراض ووكلاء للفنانين ومديري فرق ممن يرون من حقهم الطبيعي أن يعاشروها. ثم هناك التجار وأعيان الأرياف وأبناء الأسرات الذين يرون من

أوليات الوجاهة أن يحظوا براقصات الفرق المتجولة التي تنزل بالبلدة ليلة أو بضع ليالٍ!

وهؤلاء كانوا في نظرها بالطبع هم مصدر الإيراد الذي تعيش منه، فكانت تتقبلهم ببرود مهني، ولكن بالنسبة لهم لعلها كانت تمثل المغامرة والذكريات الساخنة التي يدخرها الشبان لسنوات الشيخوخة أو الاستقرار في الحياة الزوجية.

وفجأة طرق الباب طارق فصاح أشندن على الفور:

- ادخل؟

ووثبت جوليا لازاري جالسة في فراشها وصاحت:

- من؟

وظهر عليها الروع عندما رأت المخبرين اللذين أحضراها من بولونيا وسلماها إلى أشندن في تونون يدخلان عليها فصرخت:

- أنتما؟ ماذا تريدان؟

فصاح أحدهما في صوت فظ يوحي بأنه لن يتردد في استخدام العنف:

- هيا، قومي.

وقال أشندن برقة ظاهرية:

- أخشى يا مدام لازاري أنه لا مفر لك من القيام.

- ولكن لماذا؟

- لأني سأسلمك مرة أخرى لعناية هذين السيدين.

فصرخت جوليا:

- ولكن كيف أنهض؟ قلت لك إني مريضة. لا أستطيع الوقوف ألعلك تريد أن تقتلني؟

فلم يكترث أشندن وقال لها:

- إن لم ترتدي ثيابك بنفسك سنضطر إلى أن نقوم بذلك نيابة عنك. وأخشى أننا لن نستطيع ذلك بمهارة كافية. فمن الخير لك أن تقومي لأنه لا فائدة من هذه المراوغة.

فسألته جوليا:

- ولكن إلى أين تريد أن تأخذني؟

- سيأخذاك ليعودا بك إلى إنجلترا.

ومد أحد المخبرين يده فقبض على ذراعها بعنف. فصرخت بغضب:

- إياك أن تلمسني! لا تقترب مني!

فقال له أشندن:

- دعها وشأنها. أنا واثق أنها ستثوب إلى عقلها وتدرك أنه من الخير لها ألا تثير المتاعب.

فقالت جوليا:

- سأرتدي ثيابي.

وجعل اشندن يرمقها وهي تخلع ثوب النوم وتلبس ثوبًا للخروج ثم تحشر قدميها حشرًا في حذاء كان أصغر من حجمهما بشكل واضح. ثم رتبت شعرها. وبين حين وآخر كانت ترمق المخبرين بنظرات شَزْراء.

وتساءل أشندن فيما بينه وبين نفسه: ترى هل ستجد لديها الجسارة على المضي في العناد والرفض؟ إن الكولونيل سيعتبره مغفلًا غبيًّا إذا أخفق في مهمته، ولكنه في قرارة نفسه كان يتمنى لو أنها وجدت في نفسها الصلابة الكافية للمضي في الرفض إلى النهاية كي تنقذ حبيبها شندرالال.

واتجهت جوليا إلى مائدة الزينة فوقف أشندن ليتيح لها الجلوس. وجلست أمام المرآة فوضعت على وجهها الكريم بسرعة تم مسحته بمنشفة قذرة ووضعت المساحيق ثم وضعت الكحل في عينيها ويداها ترتجفان وكان الرجال الثلاثة يرقبونها صامتين. ثم صبغت خديها وفمها بالأحمر ودست رأسها في قبعة.

وأشار أشندن إلى أحد المخبرين فأخرج من جيبه الأغلال الحديدية وتقدم نحوها ليصفد معصميها. ولما رأت الأصفاد تراجعت إلى الوراء في ذعر، وفتحت ذراعيها على سعتهما وأخذت تصرخ:

- كلا كلا. لا أريد، إلا هذا!

فقال المخبر في فظاظة:

- هيا يا فتاتي. لا تكوني بلهاء.

وإذا بها تأتي بحركة دهش لها أشندن غاية الدهشة، فقد ألقت بذراعيها حول عنقه كأنها تلتمس منه الحماية، وصاحت:

- لا تدعهما يأخذاني، ارحمني! لا أستطيع! لا أستطيع! وخلص أشندن نفسه من ذراعيها وقال:

- لا أستطيع لك شيئًا بكل أسف.

وقبض المخبر على معصميها، وأوشك أن يضعهما في الأصفاد وإذا بها تطلق صرخة عظيمة وتلقي بنفسها على الأرض وتصيح:

- سأفعل ما تريد مني. سأفعل كل شيء!

واشار أشندن إلى المخبرين فغادرا الحجرة. وتمهل بعدها برهة إلى أن استعادت هدوءها. وكانت منبطحة على الأرض تنتحب بكل عنف. فتقدم منها وأنهضها على قدميها ثم أجلسها.

وقالت بين الشهيق:

- ماذا تريد مني؟

- أريد منك أن تكتبي خطابًا آخر إلى شندرالال.

- إن رأسي به دوامة ولن أستطيع أن أكتب جملة واحدة. يجب أن تمهلني بعض الوقت.

وتحير أشندن بين الرحمة والحكمة. ثم رأى أنه من الخير أن ينتهز فرصة فزعها الشديد كي تكتب الخطاب قبل أن تسترد شجاعتها وتعود إلى التمرد والرفض.

- سأملي الخطاب عليك. ولكن يجب أن تكتبي ما أمليه عليك بالضبط.

فندت عنها زفرة محرقة، ثم تناولت القلم والورق وجلست أمامه إلى منضدة الزينة وقالت:

- إذا فعلت ما تريد. ونجحت خطتك. كيف لي أن أعلم أنكم ستطلقون سراحي؟

فقال لها أشندن:

- لقد وعدك الكولونيل بذلك، وثقي أنني سأنفذ تعليماته بحذافيرها وأطلق سراحك متى وصل صاحبك إلى هنا.

- لا شك أنني أكون أشد الناس غفلة إذا أنا خنت حبيبي ثم تلقون بي في السجن بعدها.

فقال لها أشندن مترفقًا:

- سأبين لك أعظم ضمان لصدق وعدنا.

- ما هو؟

- أنه لا أهمية لك عندنا شخصيًّا إطلاقا فيما عدا كونك طعمًا لاستدراج شندرالال. فلماذا نجشم أنفسنا المتاعب والنفقات لاستضافتك في السجن وحريتك لا ضرر منها لنا؟

وفكرت في كلامه لحظة ثم عاد إليها هدوؤها وقالت بلهجة عملية:

- خبرني ماذا تريدني أن أكتب؟

وتردد أشندن. لقد خيل إليه أنه سيستطيع تقليد طريقتها في كتابة رسائلها بسهولة. وها هو ذا يجد الأمر عسيرًا. فلا بد من إتقان اللهجة المناسبة وأن يخلو الأسلوب من الثقافة وآثارها البيانية. ولكن الموقف لا بد له أيضًا من لهجة بعيدة عن بساطة الحديث العادي. وأخيرًا جمع أمره وأملى عليها ما اعتبره السهم الأخير في كنانته للحصول على الفريسة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر
الفريسة

- اكتبي:

«لم أكن أعلم أنني أحببت جبانًا رعديدًا... فلو أنك كنت تحبني حقًّا لما أمكنك أن تتردد على هذه الصورة عندما طلبت منك أن تأتي... «وضعي خطًّا تحت لَمَا أمكنك»... وقد وعدتك أنه ليس هناك خطر محدق. فإن كنت لا تحبني فخيرًا صنعت إذ لم تأتِ. لا تأتِ! عد إلى برلين حيث تشعر بالأمان والطمأنينة. لقد سئمت هذه اللعبة. أنا هنا وحيدة مريضة. أمرضني انتظارك وأنا أمني نفسي كل يوم أنك ستأتي. فلو كنت تحبني لما ترددت هكذا. لقد تبين لي الآن أنك لا تحبني. نفسي سئمتك. وليس عندي مال. وهذا الفندق فظيع. ثم لم يعد هناك ما يدعو لبقائي فيه، وفي استطاعتي أن أحصل على اتفاق للعمل في باريس. ولي هناك صديق عرض عليَّ عروضًا جديدة مغرية. وقد أضعت وقتًا طويلًا معك وبسببك، ثم ها هي ذي النتيجة! على كل حال قد انتهينا. ووداعًا. واعلم أنك لن تجد امرأة تحبك كما أحببتك أنا. وأنا الآن في موقف لا أستطيع معه أن أرفض اقتراح صديقي، ولذا أرسلت إليه برقية بالموافقة على عروضه. وبمجرد وصول رده على برقيتي سأذهب إلى باريس. وثق أنني لا ألومك على شيء لأنك في الواقع لا تحبني، وهي ليست غلطتك. ولكن يجب أيضًا أن تراعي أنني أكون غاية في الغباء لو ثابرت على إهدار حياتي، وتضييع الفرص التي لا تتكرر. لأن الشباب لا يدوم إلى الأبد. وداعًا... جوليا»

ولما فرغ أشندن من الإملاء طلب منها الخطاب وقرأه مرة أخرى فلم يرضَ عنه كل الرضا. ولكنه كان أفضل ما يستطيع. ولاحظ أن الإملاء كان عجيبًا جدًّا يصل إلى حد الفحش في الخطأ الهجائي. وأن الخط كخط طفلة. وما أكثر الكلمات التي شطبتها وكتبت غيرها عدة مرات وكان قد أملاها بعض العبارات بالفرنسية تقليدًا لطريقتها. وقد سقطت دموعها مرتين أو ثلاثًا على الصفحات فطمست معالم بعض الكلمات..

وقال لها أشندن:

- الآن أتركك. وربما أتيح لي عندما نلتقي في المرة القادمة أن أخبرك أنك صرت طليقة السراح لتذهبي حيث تشائين. وفي هذه الحالة أحب أن أعرف أين تنوين الذهاب.

فقالت بطريقة آلية:

- إلى إسبانيا.

فقال أشندن:

- وهو كذلك. سيكون كل شيء معدًّا لسفرك.

فلم تزد على أن هزت كتفيها. فتركها وانصرف.

ولم يعد أمام أشندن ما يصنعه سوى أن ينتظر. وأرسل رسولًا إلى لوزان بعد الظهر بالرسالة. وفي الصباح التالي ذهب إلى رصيف الميناء ليستقبل الزورق القادم من لوزان.

وكانت هناك قاعة انتظار مجاورة لمكتب التذاكر. وهناك أمر المخبرين بالتربص وأن يكونا على قدم الاستعداد. والمتبع عند وصول الزورق أن يتقدم الركاب في صف تتفحص جوازات سفرهم قبل أن يسمح لهم بالنزول إلى الشاطئ. فإذا جاء شمندرالال وأبرز جواز سفره، ومن المرجح أنه يسافر بجواز مزور صادر في الغالب من دولة محايدة، ففي هذه الحالة سيطلبون منه الانتظار ثم يستدعون أشندن ليتحقق من شخصيته. وعندئذ يتم القبض عليه.

وبكثير من توتر الأعصاب جعل أشندن يرقب الزورق وهو يدخل الميناء ثُم شرع يتفحص وجوه الركاب واحدًا بعد واحد، ولكنه لم يعثر بينهم على أحد يشبه أدنى شبه مسافرًا من الهند.

شندرالال لم يحضر إذن... لم يدرِ أشندن ماذا يفعل. لقد لعب ورقته الأخيرة. وكان عدد الركاب النازلين في تونون لا يزيد على حفنة قليلة سرعان ما تفرقوا إلى حال سبيلهم. وراح أشندن يتمشى فوق الرصيف بخطوات بطيئة، ثم قال لفليكس الذي كان يفحص جوازات السفر:

لقد فشلنا. والسيد الذي كنت أنتظر قدومه لم يحضر. فغمز فليكس بعينه، وقال:

- عندى خطاب يهمك كثيرًا.

وقدم إلى أشندن مظروفًا عليه عنوان مدام لازاري. فعرف أشندن على الفور خط يد شندرالال. وقبل أن يفض المظروف لمح الزورق القادم من جنيف ووجهته لوزان. وهذا الزورق يصل إلى تونون دائمًا كل صباح بعد وصول الزورق القادم من لوزان بعشرين دقيقة. وخطرت لأشندن فكرة ومضت في نفسه كأنها بريق الإلهام، فقال لفليكس:

- أين الرجل الذي أحضر هذا الخطاب؟

- إنه هناك في مكتب التذاكر.

فصاح به أشندن:

- أسرع وأعطه الخطاب وقل له أن يعود إلى الشخص الذي سلمه إياه في لوزان.

- وماذا يقول له؟

- يقول له إنه حمل الرسالة إلى السيدة ولكنها رفضت أن تتسلمها وطلبت منه أن يردها إليه. فإذا طلب منه ذلك الشخص أن يحمل خطابًا آخر إلى السيدة، فعليه أن يقول له إن ذلك لا فائدة منه لأن السيدة كانت بصدد حزم حقائبها والرحيل عن تونون.

وبعد أن تأكد من تلك الإجراءات خرج أشندن عائدًا إلى البيت الصغير القائم فوق التل.

كان موعد الزورق التالي الذي يمكن أن يصل عليه شندرالال الساعة الخامسة تقريبًا. وفي هذا الموعد بالذات كان لدى أشندن ارتباط سابق لمقابلة أحد عملائه الذين يعملون في ألمانيا. فنبه فليكس إلى أنه قد يتأخر في الحضور إلى الميناء بضع دقائق.

وعلى كل حال إذا حدث أن حضر شندرالال فمن السهل حجزه ولا ضرر من تأخره. فلا حاجة ماسة إلى العجلة لأن القطار الذي سيرحل فيه الهندى إلى باريس لا يقوم من تونون إلا بعد الساعة الثامنة.

وبعد أن انتهى أشندن من مقابلته مع العميل القادم من ألمانيا سار متئدًا إلى رصيف الميناء على شاطئ البحيرة. وكان الوقت لا يزال بعيد الغروب وفي السماء بصيص من نور فاستطاع أن يرى دخان الزورق البخاري وهو مقلع عائدًا إلى لوزان.

ومن غير أن يفكر وجد نفسه نهبًا للقلق وأسرع في خطاه. وفجأة رأى شخصًا يجري مقبلًا نحوه، وسرعان ما عرف فيه الرجل الذي حمل الخطاب إلى شندرالال، وأخذ الرجل يصيح به:

- أسرع أسرع! إنه هنا.

ففقز قلب أشندن في صدره قفزة قوية وقال:

- أخيرًا!

وشرع يجري بأقصى سرعته. والرجل يجري بجواره ويحدثه وهو يلهث بتفاصيل ما حدث عندما أعاد الخطاب مغلقًا إلى شندرالال:

- عندما وضعت الخطاب في يد الهندي شحب وجهه شحوبًا فظيعًا. ولم أكن يا سيدي أعتقد أن رجلًا داكن البشرة بهذه الصورة يمكن أن يبيض وجهه من أثر الشحوب هكذا. وجعل يقلب الخطاب في يده كأنه لا يستطيع أن يفهم ماذا جاء به ولماذا هو في يده لا في يدها، وانبثقت الدموع من عينيه وانهمرت مرارًا على خديه فكان المنظر فظيعًا ومضحكًا في آن واحد، لأنّ رجل بدين كما تعلم يا سيدي. ثم تمتم بلغة لا أفهمها. وما لبث أن سألني بالفرنسية عن موعد قيام الزورق إلى تونون. وبعد ذلك غادرته وذهبت إلى الميناء، ولما ركبت الزورق لم أره بين الركاب. ونقبت عنه وأخيرًا وجدته منعزلًا في مكان وحده وقد أرخى قبعته فوق عينيه. وظل طوال الرحلة شاخص النظرات إلى تونون.

وسأله أشندن:

- وأين هو الآن؟

- لقد سبقته في النزول وأخبرت المسيو فليكس فطلب مني أن أسرع للإتيان بك. فلا أدري أين هو، وأظنهم قابضين عليه الآن في حجرة الانتظار.

وكان أشندن قد لهث ونال منه التعب عندما وصل إلى الميناء. فاندفع داخلًا إلى قاعة الانتظار. وهناك وجد جماعة من الناس. وهم يتحدثون جميعًا في وقت واحد بأعلى أصواتهم، ويلوحون بأيديهم بصورة جنونية، متجمعين حول رجل ملقًى على الأرض.

وصاح أشندن:

- ماذا حدث؟

فقال فليكس:

- انظر!

ونظر أشندن فإذا شندرالال ملقى هناك وعيناه جاحظتان والزبد متجمع فوق شفتيه، وجسده متخشب ومتقلص بصورة فظيعة. لقد فارق الحياة.

وقال فليكس يشرح الأمر:

- قتل نفسه. وأرسلنا في استدعاء الطبيب ولكن الموت كان أسرع إليه منا.

وسرت في جسد أشندن قشعريرة فظيعة.

وجلية الأمر أن الهندي عندما نزل من الزورق، عرفه فليكس على الفور من الأوصاف التي لديه، وكان عدد الركاب النازلين في تونون أربعة فقط كان شندرالال الأخير بينهم. فتعمد فليكس التباطؤ غير المعقول في فحص

جوازات سفر الثلاثة الذين قبله. ثم تناول جواز سفر الهندي. وكان جوازًا إسبانيًّا مستكملًا لجميع الشروط الرسمية.

وبدأ فليكس يلقي على شندرالال الأسئلة المعهودة على حسب التعليمات، ويسجل الأجوبة في الاستمارة كما هو معتاد مع كل راكب. ولما انتهى من ذلك ولم يكن أشندن قد حضر، رفع فليكس عينيه إلى وجه الهندي وابتسم في دماثة شديدة قائلًا:

- أرجو أن تتفضل بالتوجه معي إلى قاعة الانتظار لحظة واحدة، لأن هناك بضعة أمور شكلية يجب استكمالها.

- فسأله الهندي.

- وهل جواز سفري ليس مستوفيًا من أية ناحية؟

- إنه على ما يرام. مجرد شكليات.

فبدا التردد على شندرالال، ثم تبع الموظف إلى باب حجرة الانتظار المقفل. وفتح فليكس له الباب بأدب وتنحى قائلًا:

- تفضل بالدخول.

ودخل شندرالال. فنهض المخبران واقفين.

ولا بد أن شندرالال ارتاب منذ أول وهلة في أنهما من الشرطة، وأدرك أنه سقط في فخ نصب له.

وقال له فليكس:

- اجلس يا سيدي. فهناك سؤال أو سؤالان أحب أن أوجههما إليك.

فقال الهندي:

- الجو هنا شديد الحرارة. ولذا سأخلع معطفي إن سمحت لي بذلك.

وفعلًا كانت المدفأة مشتعلة في الحجرة فارتفعت الحرارة فيها كأنها فرن. وقال فليكس بكل لباقة:

- طبعا يا سيدي...

وخلع الهندي معطفه بعد شيء من الجهد الظاهر، ثم دار حول نفسه ليضعه فوق مقعد. وقبل أن يدركوا ما حدث رأوه يترنح أمام أعينهم ويخر صريعًا على الأرض. فأثناء خلع معطفه استطاع شندرالال أن يتجرع محتويات زجاجة صغيرة كانت لا تزال في قبضة يده.

وقرب أشندن أنفه من الزجاجة وشمها، فوجد لها رائحة شبيهة برائحة اللوز، ووقف الجميع ينظرون إلى القتيل واجمين.

وأخيرًا سأل فليكس في اضطراب:

- هل سيغضبون لأنه انتحر قبل أن يستجوبوه؟

فهز أشندن كتفيه وقال:

- سواء غضبوا أو لم يغضبوا فأنا لا أرى لك ذنبًا. وحسبنا على كل حال أنه لم يعد قادرًا على الاستمرار في الإضرار بمصالح الحلفاء.

ومن جهتي شخصيًّا أشعر بسرور لأنه قتل نفسه بيده. فإن فكرة إعدامه بيد أعدائه على سبيل الانتقام لم تكن تثلج صدري يا صديقي.

وفي هذه اللحظة دخل الطبيب وتحقق من الوفاة ثم قال لأشندن:

- سيانور البوتاسيوم.

وهز أشندن رأسه جملة مرات ثم قال:

- سأذهب الآن لزيارة مدام لازاري. وإذا وجدت حالتها العصبية منهارة، واحتاجت للإقامة هنا يومًا أو يومين آخرين ريثما تستجمع شتات قواها فسأسمح لها بذلك. ولكن إذا أرادت أن ترحل الليلة فسيكون لها ما تريد طبعًا. هل لك يا مسيو فليكس أن تصدر الأوامر للمخبرين في محطة السكة الحديدية كي يتركوها تمر؟

فقال فليكس:

- بل سأكون بنفسي في المحطة.

وشرع أشندن يصعد التل مرة أخرى نحو منزله المنعزل. وكان الليل قد أرخى سدوله، وكان الجو باردًا صافيًا والسماء خالية من السحب يزينها هلال كأنه خيط أبيض.

وقبل أن يذهب إلى منزله عرج على الفندق ونظر إلى أثاث البهو واللوحات السياحية المعلقة على الجدران في اشمئزاز لم يشعر به من قبل. وصعد السلم وطرق الباب طرقة خفيفة ثم فتح باب حجرة جوليا.

وكانت جوليا جالسة أمام مائدة زينتها تتطلع إلى وجهها في المرأة إما عن سأم وإما عن يأس. فقد كان واضحًا أنها لا تفعل شيئًا.

وفي صفحة المرآة رأت أشندن داخلًا فتغير وجهها فجأة عندما وقع نظرها على وجهه، وقفزت واقفة في عنف حتى إن المقعد سقط على الأرض.

وسمعها تصرخ صائحة:

- ماذا حدث؟ لماذا أنت شاحب الوجه هكذا؟

ودارت على عقبيها وحملقت فيه ثم ارتسم الرعب على وجهها. وقالت لاهثة الأنفاس بالفرنسية:

- قد وقع في أيديكم!

فقال أشندن بصوت أجش:

- بل مات.

فصاحت في فرح وحشي:

- مات! لقد تناول السم إذن! لقد سنحت له فرصة واتسع الوقت كي يفعل ذلك، فأفلت من أيديكم على كل حال

فقال لها أشندن بدهشة:

- ماذا تعنين؟ وكيف عرفت حكاية السم؟

فضحكت في سخرية وقالت:

- كان يحمل الزجاجة معه دائمًا ولا تفارقه. كان يقول بإصرار إن الإنجليز لن يظفروا به حيًّا مهما حدث.

وفكر أشندن برهة وشعر بالإعجاب لأنها كتمت ذلك السر بحرص وعناية. وفطن الآن إلى أن تلك الفكرة كان ينبغي أن تخطر له. وأخيرًا قال لها:

- أنت الآن حرة تمامًا. في وسعك أن تذهبي حيث تشائين ولن تقف في سبيلك أية عقبة. ها هي ذي تذكرة سفرك كما وعدتك. وها هو ذا جواز السفر. وها هي ذي النقود التي كانت في حوزتك حينما ألقي القبض عليك.

وسكت قليلًا ثم سألها:

- أتريدين أن تلقي نظرة أخيرة عليه؟

فأجفلت وصاحت:

- كلا كلا!

فقال لها أشندن:

- لا، لا ضرورة لذلك حقًّا. ولكن خطر ببالي أنك ربما عناك أن تلقي عليه نظرة أخيرة...

لم تبكِ. وقدر أشندن أنها استنفدت قبل هذه الصدمة انفعالاتها وطاقتها. واستطرد يقول لها:

- ستصل الليلة برقية إلى الحدود الإسبانية وبها تعليمات إلى سلطات الحدود بتسهيل مرورك. فإن أردت قبول نصحي يحسن أن تغادري الأراضي الفرنسية بأسرع ما تستطيعين.

ولم تقل شيئًا. ظلت ساكنة. ولما كان لم يعد لدى أشندن ما يقوله، تأهب للانصراف وقال لها:

- يؤسفني أنني كنت مضطرًّا لاستعمال الشدة معك. ويسرني أن أسوأ ما في متاعبك قد انتهى. وأتمنى أن يمحو الزمن حزنك الشديد، بسبب موت صديقك.

ثم انحنى أشندن واتجه نحو الباب. ولكنها استوقفته قائلة:

- رويدك لحظة.

فالتفت نحوها متسائلًا فقالت:

هناك شيء واحد أحب أن أطلبه منك. وأظن أن قلبك لا يخلو من جذوة رقة...

فقال أشندن بكل إخلاص:

- ثقي أنني مستعد أن أصنع من أجلك كل ما أستطيع.

فسألته في هدوء تام:

- ماذا تراهم سيصنعون بأشيائه التي كان يحملها؟

فظهرت الدهشة على وجه أشندن وقال لها:

- لا أدري. ولكن لماذا تسألين؟

وعندئذ قالت شيئًا أذهل أشندن فوقف مبهوتًا. قالت آخر ما كان يتوقع أن يسمعه منها:

- إن ساعة معصمه كانت هدية مني في عيد الميلاد الأخير. وقد كلفتني اثني عشر جنيهًا. وأمامي أيام قاسية. فهل لك في أن تساعدني على استردادها؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الحادي عشر
جوستاف

عندما قرر الكولونيل إرسال أشندن إلى سويسرا ليشرف على مجموعة من الجواسيس الذين يعملون لحساب إنجلترا من هناك، أحبَّ أن يطلعه على نموذج للتقارير التي يتطلب منه الحصول على مثلها. لذا سلمه مجموعة من الوثائق المكتوبة على الآلة الكاتبة، صادرة من رجل يعرف في إدارة المخابرات تحت اسم جوستاف، وهو اسم مستعار بالطبع. وقال الكولونيل:

- إنه أفضل جاسوس يعمل لحسابنا هناك. والمعلومات التي يزودنا بها كاملة باستمرار، وشاملة لجميع التفاصيل، ومناسبة لظروفها وأوقاتها. وأريد منك أن تعير تقارير هذا الرجل أقصى عنايتك. وجوستاف بطبيعة الحال شخص ذكي بارع جدًّا بصورة خارقة، ولكن هذا لا يمنع من حصولنا على تقارير تضاهيها في الجودة والدقة من العملاء الآخرين. وذلك لا يتطلب سوى أن تشرح لهم بالضبط ماذا نريد منهم. وهذا الشرح هو مهمتك بصفتك المشرف المباشر عليهم. والأساس أو المستوى الذي تطالبهم بتحقيقه في تقاريرهم هو مستوى تقارير جوستاف هذه!

وجوستاف يقيم بصفة أساسية في مدينة بال. وهو مندوب شركة سويسرية لها فروع في المدن الألمانية الهامة مثل فرانكفورت ومانهايم وكولونيا. وبسبب عمله في الشركة كان متاحًا له أن يذهب إلى ألمانيا ويعود منها بصورة دورية وبشكل طبيعي خالٍ من كل مجازفة.

وكانت رحلاته في منطقة الراين الخطيرة. ومن هناك كان يجمع المعلومات عن تحركات الجيوش، وصناعة الذخائر والأسلحة، وعن الحالة المعنوية للشعب. وهذه مسألة كان يهتم بها الكولونيل اهتمامًا فائقًا. فضلًا عن المسائل الأخرى التي كان الحلفاء يطلبون المعلومات المستفيضة عنها.

وكانت خطاباته الكثيرة إلى زوجته في بال أثناء رحلاته داخل ألمانيا تخفي بين سطورها شفرة خاصة. وبمجرد تسلمها لتلك الخطابات. كانت ترسلها أولًا بأول إلى أشندن حيث يقيم في جنيف، فيستخرج من هذه الخطابات الحقائق الهامة ويبلغها إلى الجهات المختصة في الحال.

ومرة كل شهرين كان جوستاف يعود إلى بيته ووطنه، ويعد تقريرًا من تلك التقارير التي اعتبرها الكولونيل أنموذج ينبغي أن ينسج على منواله الجواسيس الآخرون في ذلك القطاع بالذات من إدارة المخابرات.

كان الرؤساء راضين عن جوستاف. وكانت الأسباب مهيأة كي يرضى جوستاف عن رؤسائه. لأن خدماته كانت مفيدة ونافعة، بحيث كان يتقاضى

عنها لا أجرًا أعلى من أجور الجواسيس الآخرين فحسب، بل كان يتقاضى أيضًا بين الحين والحين مكافآت سخية على خدمات لها امتياز خاص.

واستمر الحال على هذا المنوال أكثر من سنة ثم حدث شيء ما أثار ريبة الكولونيل السريعة. فقد كان الكولونيل رجلًا يتصف بيقظة مدهشة، لا ترجع إلى قوة العقل في الغالب، بل إلى قوة غريزية خاصة فيه. وبوحي هذه الغريزة شعر فجأة أن هناك شيئًا على غير ما يرام. ولم يفضِ بشيء محدد عن دواعي هذه الريبة إلى أشندن. لأن الكولونيل كان من أقدر الناس على كتمان خواطرهم الخاصة مهما كان نوعها، ولكنه طلب إليه أن يذهب إلى بال _وكان جوستاف في ذلك الحين بألمانيا_ وأن يتحدث إلى زوجة جوستاف. وترك لأشندن حرية التصرف في إدارة الحديث معها من غير تحديد.

ولما وصل أشندن إلى بال ترك حقيبته في المحطة لأنه لم يكن يدري هل سيبقى في المدينة أم يرحل عنها في نفس اليوم. وركب الترام إلى رأس الشارع الذي يسكن فيه جوستاف. ولما نزل من الترام ألقى نظرة سريعة ليتبين هل هناك من يتبعه أم لا. ثم اتجه إلى البيت الذي يقصده.

وكان البيت عبارة عن عمارة سكنية توحي إليك بفاقة يسترها التعفف، وغلب على ظن أشندن أن السكان من الكتبة وصغار التجار وأصحاب الحرف. ومن داخل باب العمارة مباشرة وجد دكان إسكاف. فوقف عنده أشندن وسأله بلغته الألمانية المتعثرة شيئًا ما:

- هل الهر جراباو يسكن هنا؟

فأجابه الإسكاف على الفور:

- نعم. وقد رأيته يصعد إلى مسكنه منذ دقائق قليلة. ستجده هناك.

وأخذ أشندن بهذا القول، لأنه تلقى في اليوم السابق مباشرة من زوجة جوستاف خطابًا مرسلًا من زوجها إليها من مدينة مانهايم، يتضمن بطريقة شفرته الخاصة أرقام فرق معينة في الجيش الألماني قال إنها عبرت نهر الراين.

ورأى أشندن من الغفلة أن يسأل الإسكاف ذلك السؤال الذي قفز إلى شفتيه. واكتفى بأن شكر الرجل وصعد إلى الطابق الثالث حيث كان يعلم من قبل أن جوستاف يسكن جناحًا منه.

ودق أشندن الجرس وسمع رنينه في الداخل، وبعد لحظة فتح الباب رجل قصير القامة ذو رأس حليق مستدير، وعلى عينيه نظارة، وفي قدميه خف مما يلبس في المنزل.

وسأله أشندن:

- الهر جراباو؟

فقال جوستاف:

- في خدمتك.

- هل تسمح لي بالدخول؟

وكان جوستاف واقفًا وظهره إلى الضوء فلم يستطع أشندن أن يتبين نظراته وسحنته عندئذ. ولكنه شعر أن الرجل تردد ترددًا يسيرًا، فنطق أشندن باسمه السري الذي يتلقى بمقتضاه خطابات جوستاف من ألمانيا. فقال على الفور:

- ادخل. ادخل. إني سعيد جدًّا بلقائك.

وقاده جوستاف إلى غرفة صغيرة مزدحمة ثقيلة الهواء، أثاثها من خشب البلوط الضخم المنقوش. ورأى أشندن فوق المائدة الكبيرة المغطاة بمفرش من القطيفة الخضراء آلة كاتبة. ويظهر أن جوستاف كان منهمكًا في تدبيج تقرير من تقاريره الثمينة.

وعند النافذة المفتوحة جلست امرأة ترتق الجوارب. وبإشارة من جوستاف نهضت وجمعت الجوارب وانصرفت. فأدرك أشندن أنه أزعج هدوء اجتماع عائلي نموذجي في صفائه. وقال جوستاف:

- أرجو أن تتفضل بالجلوس. يا له من حظ سعيد أن تجدني الآن في بال. فأنا منذ مدة طويلة جدًّا مشوق إلى التعرف بك وقد وصلت في هذه الدقيقة من ألمانيا.

وأشار إلى الأوراق والآلة الكاتبة ثم استطرد:

- وأعتقد أنك ستسر كثيرًا من الأنباء التي أتيت بها. فعندي هذه المرة معلومات قيمة للغاية...

وضحك ثم قال:

- والإنسان لا يسوؤه طبعًا أن يحصل على مكافأة...

وكان ظريفًا جدًّا وودودًا. ولكن أشندن أحس بنبرة تكلف. وكان جوستاف يتكلم وهو مثبت عينيه الباسمتين من خلال منظاره على وجه أشندن في يقظة يشوبها شيء خفيف جدًّا من القلق... وقال له أشندن:

- لا بد أنك أسرعت جدًّا في رحلتك حتى أنك وصلت هنا بعد وصول خطابك بساعات قليلة!

- هذا جائز جدًّا. ومن الواجب أن أخبرك أن الألمان يرتابون في تسرب المعلومات العسكرية عن طريق المراسلات التجارية العادية. لذا قرروا أن يستبقوا جميع الرسائل البريدية عند الحدود لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة.

فابتسم أشندن وقال بكل ظرف:

- آه. لعلك لهذا السبب اتخذت حيطتك عند تاريخ خطابك فوضعت عليه تاريخًا متأخرًا عن يوم الإرسال بثمانٍ وأربعين ساعة؟

- هل فعلت ذلك حقًّا؟ ما أشد غبائي. لا بد أنني أشكل عليَّ تاريخ اليوم.

فنظر أشندن إلى جوستاف وهو يبتسم، فهذا عذر واهٍ جدًّا.

بلغته الألمانية المتعثرة شيئًا ما:

- هل الهر جراباو يسكن هنا؟

فأجابه الإسكاف على الفور:

- نعم. وقد رأيته يصعد إلى مسكنه منذ دقائق قليلة. ستجده هناك.

وأخذ أشندن بهذا القول، لأنه تلقى في اليوم السابق مباشرة من زوجة جوستاف خطابًا مرسلًا من زوجها إليها من مدينة مانهايم، يتضمن بطريقة شفرته الخاصة أرقام فرق معينة في الجيش الألماني قال إنها عبرت نهر الراين.

ورأى أشندن من الغفلة أن يسأل الإسكاف ذلك السؤال الذي قفز إلى شفتيه. واكتفى بأن شكر الرجل وصعد إلى الطابق الثالث حيث كان يعلم من قبل أن جوستاف يسكن جناحًا منه.

ودق أشندن الجرس وسمع رنينه في الداخل، وبعد لحظة فتح الباب رجل قصير القامة ذو رأس حليق مستدير، وعلى عينيه نظارة، وفي قدميه خف مما يلبس في المنزل.

وسأله أشندن:

- الهر جراباو؟

فقال جوستاف:

- في خدمتك.

- هل تسمح لي بالدخول؟

وكان جوستاف واقفًا وظهره إلى الضوء فلم يستطع أشندن أن يتبين نظراته وسحنته عندئذ. ولكنه شعر أن الرجل تردد ترددًا يسيرًا، فنطق أشندن باسمه السري الذي يتلقى بمقتضاه خطابات جوستاف من ألمانيا. فقال على الفور:

- ادخل. ادخل. إني سعيد جدًّا بلقائك.

وقاده جوستاف إلى غرفة صغيرة مزدحمة ثقيلة الهواء، أثاثها من خشب البلوط الضخم المنقوش. ورأى أشندن فوق المائدة الكبيرة المغطاة بمفرش من القطيفة الخضراء آلة كاتبة. ويظهر أن جوستاف كان منهمكًا في تدبيج تقرير من تقاريره الثمينة.

وعند النافذة المفتوحة جلست امرأة ترتق الجوارب. وبإشارة من جوستاف نهضت وجمعت الجوارب وانصرفت. فأدرك أشندن أنه أزعج هدوء اجتماع عائلي نموذجي في صفائه. وقال جوستاف:

- أرجو أن تتفضل بالجلوس. يا له من حظ سعيد أن تجدني الآن في بال. فأنا منذ مدة طويلة جدًّا مشوق إلى التعرف بك وقد وصلت في هذه الدقيقة من ألمانيا.

وأشار إلى الأوراق والآلة الكاتبة ثم استطرد:

- وأعتقد أنك ستسر كثيرًا من الأنباء التي أتيت بها. فعندي هذه المرة معلومات قيمة للغاية...

وضحك ثم قال:

- والإنسان لا يسوؤه طبعًا أن يحصل على مكافأة...

وكان ظريفًا جدًّا وودودًا. ولكن أشندن أحس بنبرة تكلف. وكان جوستاف يتكلم وهو مثبت عينيه الباسمتين من خلال منظاره على وجه أشندن في يقظة يشوبها شيء خفيف جدًّا من القلق... وقال له أشندن:

- لا بد أنك أسرعت جدًّا في رحلتك حتى أنك وصلت هنا بعد وصول خطابك بساعات قليلة!

- هذا جائز جدًّا. ومن الواجب أن أخبرك أن الألمان يرتابون في تسرب المعلومات العسكرية عن طريق المراسلات التجارية العادية. لذا قرروا أن يستبقوا جميع الرسائل البريدية عند الحدود لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة.

فابتسم أشندن وقال بكل ظرف:

- آه. لعلك لهذا السبب اتخذت حيطتك عند تاريخ خطابك فوضعت عليه تاريخًا متأخرًا عن يوم الإرسال بثمانٍ وأربعين ساعة؟

- هل فعلت ذلك حقًّا؟ ما أشد غبائي. لا بد أنني أشكل عليَّ تاريخ اليوم.

فنظر أشندن إلى جوستاف وهو يبتسم، فهذا عذر واهٍ جدًّا.

فجوستاف رجل أعمال وهو لذلك يعرف تمام المعرفة أهمية التاريخ الدقيق في عمله التجاري، والأهمية القصوى في هذه المهام السرية التي تتعلق بالمخابرات. فمن العناصر الجوهرية لدى القيادة أن تعرف بالضبط اليوم الذي وقعت فيه الأحداث المشار إليها في التقارير والخطابات.

وقال أشندن لجوستاف:

- دعني ألقي نظرة على جواز سفرك.

- ولماذا تريد أن ترى جواز سفري؟

- أريد أن أرى تاريخ ذهابك إلى ألمانيا وتاريخ خروجك منها.

- ولكن هل تتصور أن جميع سفرياتي من وإلى ألمانيا مسجلة في جواز سفري؟

- هذا هو المفروض.

- إن لي وسائلي الخاصة في اجتياز الحدود بصفة غير رسمية.

وكان أشندن على علم دقيق بهذه المسألة. فهو يعرف أن كلًّا من الجانب الألماني والجانب السويسري يحرس الحدود المشتركة في دقة فائقة لا تعرف التساهل. ولذلك سأل جوستاف:

- أحقًّا؟ ولماذا لا تجتاز الحدود الألمانية السويسرية بالوسائل الرسمية المعتادة؟ إننا ألحقناك بالعمل لأن تمثيلك لشركة سويسرية تورد سلعًا ضرورية للأسواق الألمانية ييسر لك السفر إلى ألمانيا ذهابًا وإيابًا بصورة طبيعية رسمية لا تثير الشك. وقد أفهم أن تجتاز خطوط الحراس الألمان بتواطؤ خاص. ولكن كيف يشمل هذا التواطؤ الحراس السويسريين؟

فارتسمت على وجه جوستاف نظرة استنكار هائلة، وقال:

- لست أفهمك؟ هل تريد أن تلمح إلى أنني قد أكون في خدمة الألمان؟ إني أقسم لك بشرفي. لن أسمح لأحد بتجريح استقامتي!

فقال أشندن بهدوء:

- إنك لن تكون الرجل الوحيد الذي يقبض أموالًا من المعسكرين المتحاربين معًا، ولا يقدم معلومات ذات قيمة إلى هؤلاء ولا أولئك.

- هل تريد أن تقول إن معلوماتي لا قيمة لها؟ فلماذا إذن أعطيتموني من تلقاء أنفسكم مكافآت لم يظفر بها عميل آخر من عملائكم؟ إن الكولونيل نفسه كثيرًا ما أعرب عن منتهى الارتياح إلى خدماتي.

فقال له أشندن في صبر وليونة:

- اسمع يا صاحبي! لا تحاول أن تتعاظم. إن كنت لا تريد أن تطلعني على جوار سفرك فلن ألح عليك في طلبه. ولكن هل تظن أننا نترك المعلومات التي يمدنا بها عملاؤنا من غير مضاهاة أو تمحيص؟ وإننا لا نتعقب تحركاتهم بوسائلنا الخاصة؟ مهما كانت النكتة جيدة فلا يمكن أن يستمر نجاحها إذا كررها صاحبها مرات عديدة.

وكان أشندن على شيء من الحذق في لعب البوكر فقرر أن «يبلفه»:

- لدينا معلومات تفيد أنك لم تذهب إلى ألمانيا منذ التحقت بخدمة المخابرات الإنجليزية ولكنك كنت تجلس هنا وادعًا مطمئنًا في بيتك. وأن جمع تقاريرك البديعة مستمدة من مخيلتك الخصبة.

ونظر جوستاف إلى أشندن فلم يتبين في ملامحه سوى التسامح والطيبة والميل للدعابة. فانفرجت أسارير جوستاف، وهز كتفيه وقال:

- وهل كنت تظنني من الحماقة بحيث أجازف بحياتي في سبيل خمسين جنيهًا في الشهر؟ أنا أحب زوجتي!

فانفجر أشندن ضاحكًا وقال:

- تهنئتي الحارة لك على براعتك وخيالك. فما كل إنسان يستطيع أن يزهو بتمكنه من استغفال مخابراتنا السرية أكثر من سنة!

- لقد سنحت لي فرصة كسب نقود من غير صعوبة. وكانت الشركة قد توقفت عن إرسالي إلى ألمانيا منذ بداية الحرب. أما المعلومات فكنت أتسقط بعضها من المندوبين التجاريين الآخرين وهم أصدقائي، وكنت أفتح أذني جيدًا في حانات البيرة والمطاعم وأطالع الصحف الألمانية التي تأتي إلى هنا يوميًّا. وكنت أجد متعة عظيمة في تحرير تلك التقارير والرسائل.

بغير شك إنها تسلية عظيمة!

- والآن ماذا ستصنع؟

- لا شيء. وماذا نستطيع أن نصنع؟ ولا أظنك تخال أننا سنستمر في دفع مرتبك الشهري؟

- كلا بالطبع.

- وبهذه المناسبة هل أكون فضوليًّا لو سألتك إن كنت قد لعبت نفس اللعبة على الألمان؟

فصاح جوستاف باستهجان وحماسة:

- لا. كيف خطر ببالك هذا الفرض الفظيع؟ إن عواطفي كلها في جانب الحلفاء.

- وما المانع؟ أموال الألمان كثيرة جدًّا وليس هناك أي سبب يحول بينك وبين اقتناص ما تريد منهم. وسنقدم لك بين حين وحين معلومات ستجد الألمان مستعدين للحصول عليها.

- كلا. الألمان قوم عصبيون فيهم عنف، ومن الخطر أن يهزل الإنسان معهم.

- هذا يدل على أنك رجل ذكي جدًّا. واعلم أننا وإن أوقفنا مرتبك الشهري فإننا على استعداد تام لدفع مكافآت شخصية على أي أخبار حقيقية نافعة لنا. ولكن بعد التحقق منها بوسائلنا الخاصة.

- سأفكر في هذا الموضوع.

وأشعل أشندن سيجارة واستغرق في التفكير قليلًا ثم قال:

- لك ألفان من الفرنكات السويسرية إن استطعت أن تخبرني بما يفعله الألمان عن طريق جاسوس لهم يقيم في لوسرن، وهو إنجليزي يدعى جرانتلي كايبور.

فقال جوستاف بعد لحظة صمت:

- سمعت هذا الاسم. كم ستبقى هنا في بال؟

- سأبقى الوقت الضروري. سأستأجر حجرة في الفندق وأخبرك برقمها. فإذا احتجت إلى إخباري بشيء في هذا الشأن فستجدني دائمًا في حجرتي في الساعة التاسعة صباح كل يوم وفي الساعة السابعة مساء كل ليلة.

فقال جوستاف بحذر:

- لا أستطيع أن أجازف بالحضور إلى الفندق. ولكني أستطيع أن أكتب إليك بما أريد.

- وهو كذلك.

ونهض أشندن واقفًا لينصرف وصحبه جوستاف إلى باب مسكنه. وقال لأشندن وهو يشد على يده مودعًا:

- إننا نفترق صديقين أليس كذلك؟

- طبعًا، طبعًا. وستظل تقاريرك في محفوظاتنا نموذجًا لما ينبغي أن يكون عليه التقرير الجيد.

وقضى أشندن يومين أو ثلاثة في النزهة ومشاهدة معالم بال ولكن لم تَرُق له هذه المناظر. فكان يقضي ساعات طويلة في المكتبات يقلب صفحات كتب كان يحب أن يقرأها لو أن مدى العمر ألف سنة!

وذات مرة رأى جوستاف في الشارع فتجاهل كل منهما صاحبه. وفي اليوم الرابع وصله خطاب مع قهوة الصباح. وكان المظروف يحمل اسم مؤسسة تجارية لا يعرفها، وبداخله ورقة مكتوبة على الآلة الكاتبة بغير عنوان وبغير إمضاء. وابتسم أشندن لأن جوستاف لا يعلم فيما يبدو أنه يمكن مضاهاة خطوط الآلة الكاتبة مثل مضاهاة الخطوط اليدوية تمامًا.

وبعد أن فرغ من تلاوة الخطاب مرتين بعناية أحرقه بعود ثقاب ثم وضع الرماد في حوض الغسيل. وحزم بعد ذلك حقائبه وركب أول قطار قاصدًا برن.

ومن برن أرسل إلى الكولونيل برقية بالشفرة عن طريق السفارة الإنجليزية. وبعد يومين جاءه رسول من السفارة في حجرة نومه بالفندق، وأبلغه تعليمات شفهية في ساعة متأخرة جدًّا من الليل حتى لا تكون ممرات الفندق مزدحمة. وبناء على هذه التعليمات سافر أشندن بعد أربع وعشرين ساعة بطريق ملتوية قاصدًا مدينة لوسرن السويسرية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني عشر
الخائن

استأجر أشندن حجرة في فندق معين صدرت إليه التعليمات المشددة أن ينزل فيه بالذات بمجرد وصوله إلى مدينة لوسرن. وبعد أن نفذ هذه الخطوة، غادر الفندق، وكان اليوم رائع الطقس، من أوائل شهر أغسطس، والشمس مشرقة والسماء صافية.

ولم يكن قد زار لوسرن منذ كان صبيًّا حديث السن، فلم يبقَ في ذاكرته منها إلا صورة غامضة لقنطرة مسقوفة ولتمثال من الصخر يمثل أسدًا، ولكنيسة جلس فيها ساعة من الزمن وقد استولى عليه السأم الممزوج بالرهبة وهو يستمع إلى عزف مؤثر على الأرغن فانطلق يجوس خلال المدينة ليجدد ما بهت من تلك الذكريات القديمة، وليستمتع بالرياضة في ذلك الجو الدافئ.

وكانت لوسرن في مدة الحرب خالية من الزوار والغرباء والأجانب كأنما استعادت عزلتها وهدوءها كانت سويسرا دولة جبلية يرتادها السائحون من مشارق الأرض ومغاربها للنزهة والاستجمام.

كانت الفنادق مغلقة والشوارع خالية، والزوارق ذات المجاديف المعروضة للإيجار بالساعة تتأرجح في تراخٍ عند شط البحيرة وقد سدت الشاطئ تطلب من يستأجرها. والطرق الواسعة المشجرة التي تحف بالبحيرة لا ترى فيها سوى سويسريين يمشون جادين، وكأنهم يحتفظون بحيادهم حتى في نزهتهم على الأقدام!

وشعر أشندن بالأعياء من هذه الوحدة الموحشة فجلس فوق مقعد حجري مواجه للماء، وراح يتطلع إلى المنظر الذي أمامه، فوجده على جماله لا يخلو من سخف، فالماء شديد الزرقة، والجبال من وراء البحيرة مثقلة بثلوج ناصعة البياض، فكأنما جمال المنظر يصدم العين ويلطم المحيا، وذكرته لوسرن في تلك الساعة بتلك الأزهار الصناعية المصنوعة من الشمع، المعروضة تحت نواقيس نظيفة لامعة من الزجاج في صالون أنيق خال من الجالسين!

ومهما يكن من شيء فقد كان عازمًا على الاستمتاع بالطبيعة ما ظل الجو بديعًا مشمسًا. فهو لم يكن يرى أي تعارض على الإطلاق بين إمتاع نفسه والقيام بخدمة بلاده. وكان في جيبه جواز سفر جديد تحت اسم مستعار، فأحس إحساسًا طريفًا بأن له شخصية جديدة. وساعد ذلك على تسليته. فهو ليس الآن أشندن وإنما هو مخلوق خلقه الكولونيل. اختراع مستحدث تمخضت عنه مخيلة جندي...

ونهض أشندن وتهادى متجهًا نحو الفندق. وكان هذا الفندق من الفنادق الألمانية الصغيرة، ويعتبر من فنادق الدرجة الثانية، ولكنه نظيف كل النظافة، وحجرة النوم التي استأجرها تطل على منظر بديع، وأثاثها من خشب الشربين المطلي بقشرة لامعة. ولو كان الجو رطبًا باردًا، لكانت الحجرة كئيبة، أما في هذا الجو الدافئ المشمس فهي مريحة للنفس باعثة على المرح...

وفي بهو ذلك الفندق موائد صغيرة متناثرة جلس إلى إحداها وطلب زجاجة بيرة. وكانت مديرة الفندق، وهي زوجة صاحبه، متشوقة لمعرفة السبب الذي حدا بهذا الإنجليزي للحضور في هذا الموسم الميت إلى لوسرن لقضاء بضعة أيام. وكان أشندن مستعدًّا بل ميالًا لإشباع فضولها. فأخبرها أنه أبلَّ أخيرًا من إصابة شديدة بحمى التيفوئيد، ونصحه الطبيب بقضاء فترة النقاهة في هذا الفصل البديع من السنة بمدينة لوسرن، كي ينعم بجمال الطقس والهدوء البعيد عن ضجة الزحام ومتاعب الحرب. وأخبرها أيضًا أنه كان موظفًا في إدارة الرقابة على الأنباء بلندن، لذا انتهز الفرصة لعل إقامته في لوسرن في فندق ألماني تساعده على محو الصدأ عن لغته الألمانية.

وطلب منها عَرَضًا أن ترشح له معلمًا ألمانيًّا. وكانت ربة الفندق سيدة سويسرية شقراء ضخمة، ذات وجه بشوش، وفيها ميل للثرثرة. فأيقن أشندن أنها ستذيع ما أفضى إليها به من معلومات ورأى أنه صار من حقه الطبيعي، بعد أن أشبع فضولها بالإجابة عن أسئلتها الكثيرة المتلاحقة، أن يوجه إليها بضعة أسئلة. ووجد لديها ميلًا للإفاضة في موضوع الحرب التي جعلت فندقها خاليًا تقريبًا، مع أنه في مثل هذا الشهر من السنوات السابقة للحرب، كان الفندق يكتظ بالنزلاء بحيث يقتضي الأمر البحث عن غرف لهم في البيوت المجاورة... وذكرت له أن الكثيرين يأتون لتناول وجبات الطعام في مطعم الفندق، لكن لا يقيم لديها بصفة دائمة إلا مجموعتان من الناس، إحداهما مكونة من زوجين أيرلنديين يقيمان طول السنة في فيفاي ولكنهما يقضيان دائمًا شهور الصيف في لوسرن. والمجموعة الأخرى عبارة عن رجل إنجليزي وزوجته. وهذه الزوجة ألمانية لذا اضطر الزوجان في مدة الحرب للإقامة في بلد محايد.

وكان أشندن حريصًا على ألا يظهر أقل فضول بخصوص هذا الإنجليزي وزوجته الألمانية، لأنه عرف من الوصف أن هذا الرجل هو جرانتلي كايبور ضالته المنشودة... لكن ربة الفندق أخبرته من تلقاء نفسها أن الزوجين يقضيان معظم النهار في التجول بين الجبال، لأن الهر كايبور عالم في النبات، وله اهتمام عظيم بالأزهار البرية في هذا الإقليم، وزوجته امرأة لطيفة للغاية شديدة الحساسية نحو مركزها الدقيق، وما تسببه جنسيتها الألمانية من

المتاعب لزوجها. لكن بطبيعة الحال لا يمكن أن تدوم الحرب إلى الأبد يا سيدي...

وانصرفت ربة الفندق لبعض شأنها وصعد أشندن إلى حجرته. وكان موعد العشاء في الساعة السابعة، بيد أن أشندن كان حريصًا على النزول إلى قاعة الطعام قبل جميع الناس، كي يستطيع استعراض وجوه جميع من يتناولون الطعام في لحظة دخولهم إلى القاعة. لذا نزل بمجرد سماع الجرس الذي يدعو الناس إلى الطعام.

وكانت القاعة خالية من كل زخرف، عاطلة من مباهج الترف، جدرانها بيضاء ناصعة، وفوق كل مائدة من الموائد الصغيرة طاقة من الزهر. فكان كل شيء على الجملة نظيفًا جدًّا وأنيقًا جدًّا، لكنه يوحي بسوء طعم الأكل الذي سيقدم في هذا الجو. وفكر أشندن في أن يعوض نفسه عن ذلك بطلب زجاجة من أحسن أنواع نبيذ الراين، لكنه لم يشأ أن يجازف بلفت النظر إلى شخصه بهذا الإسراف بعد أن رأى فوق ثلاث موائد أنصاف زجاجات من النبيذ الرخيص، وأدرك أن زملاءه يشربون بتقتير شديد على أنفسهم، لذا اكتفى بطلب كأس كبيرة من البيرة.

ودخل القاعة بضعة أشخاص كان واضحًا أنهم سويسريون جلس كل واحد منهم إلى مائدته الصغيرة وفتحوا الصحف أمامهم وجعلوا يقرءون أثناء تناول الحساء. وبعد ذلك دخل رجل طويل القامة متقدم جدًّا في السن، له شعر أبيض كالثلج، وشارب أبيض متهدل، ومعه سيدة عجوز قصيرة بيضاء الشعر ترتدي السواد. فأدرك أشندن أنهما الكولونيل الأيرلندي وزوجته اللذان حدثته عنهما ربة الفندق.

وجلس الزوجان، وصب الكولونيل لامرأته كوبًا من النبيذ، ثم صب لنفسه كوبًا آخر ثم انتظرا في سكون إلى أن قدمت إليهما الخادمة الريفية، الممتلئة القد والوجه، وجبة الطعام.

وأخيرًا وصل الشخصان اللذان كان أشندن في انتظار قدومهما. وكان أشندن يتظاهر جهد استطاعته بقراءة كتاب ألماني. وبمجهود شديد في ضبط نفسه، سمح لنفسه أن يرفع عينيه مدة لحظة واحدة عند دخولهما، ثم عاد إلى الكتاب الألماني المفتوح أمامه.

وأظهرته لمحته هذه على رجل في نحو الخامسة والأربعين، له شعر قصير أسود لا يخلو من التجاعيد تتخلله شعرات بيضاء، متوسط الطول، ولكنه يميل للبدانة، وله وجه عريض أحمر حليق. يرتدي بدلة رمادية وقميصًا ذا ياقة واسعة مفتوحة. وكان يتقدم زوجته في السير. ولم يرَ منها أشندن إلا ما أشعره أنها امراة ألمانية غير محبة للظهور، يعلو ثيابها غبار كثير.

وجلس جرانتلي كايبور إلى مائدته وشرع يشرح للخادمة بصوت مرتفع كيف أنهما مشيا مسافات طويلة، وأنهما صعدا جبلًا ما لم تكن لاسمه أهمية لدى أشندن ولكن هذا الاسم أثار لدى الخادمة الدهشة والحماسة.

وبعد ذلك قال كايبور بلهجة ألمانية طلقة تشوبها لكنة إنجليزية واضحة، أنهما تأخرا كثيرًا، لذا لم يتسع الوقت أمامهما كي يستحما ويبدلا ثيابهما واكتفيا بغسل أيديهما، وكان صوته في الكلام رنانًا ولهجته مرحة:

- هيا أحضري طعامنا بسرعة، فنحن في شدة الجوع. وأحضري بيرة، هاتي ثلاث زجاجات كبيرة، رباه ما أشد ظمئي؟

ويبدو عليه أنه رجل يتمتع بحيوية مفرطة، فأضفى دخوله على تلك القاعة الراكدة الكئيبة المفرطة النظافة جوًّا بعث فيها الحياة وشرع يتحدث إلى زوجته بالإنجليزية بصوت يستطيع أن يسمعه جميع الموجودين. ولكنها سرعان ما قاطعته بملاحظة أفضت بها إليه في صوت خافت.

وكف كايبور عن الكلام وشعر أشندن أن عينيه تتجهان إلى ناحيته. إن المسز كايبور فطنت إلى وجود شخص غريب فوجهت نظر زوجها إلى ذلك. وقلب أشندن صفحة الكتاب الذي كان يتظاهر بقراءته، ولكنه أحس أن نظرة كايبور مثبتة عليه بإلحاح شديد.

ولما كلم كايبور زوجته بعد ذلك كان صوته منخفضًا جدًّا حتى أن أشندن لم يستطع أن يسمع بأية لغة من اللغتين كان يخاطبها. وعندما جاءتهما الخادمة بالحساء سألها كايبور سؤالًا بصوت منخفض أيضًا. وكان واضحًا أنه يسألها عن أشندن وما عساه يكون. ولم تلتقط أذن أشندن المرهفة من إجابة الخادمة سوى كلمة «إنجليزي».

وفرغ شخص أو شخصان من عشائهما وانصرفا. ثم نهض الكولونيل الأيرلندي العجوز وزوجته العجوز عن مائدتهما. وتنحى الكولونيل كي يفسح لزوجته الطريق. إن هذين الزوجين أكلا بأناة من غير أن يتبادلا كلمة واحدة. ومشت الزوجة على مهل إلى الباب. أما الكولونيل فوقف يلقي كلمة إلى سويسري من الموجودين لعله محامٍ أو موثق عقود. فلما وصلت الزوجة إلى الباب وقفت كأنها نعجة مسالمةً في انتظار زوجها كي يفتح لها الباب. وأدرك أشندن من هذا المسلك أنها لم تفتح في حياتها الباب لنفسها. وبعد دقيقة جاء الكولونيل العجوز إلى الباب ففتحه ومرقت منه وهو في أثرها.

وأغراه هذا المنظر فاسترسل في تصور حياتهما معًا، وبدأ في بناء الحوادث والشخصيات. لكنه لم يلبث أن رد نفسه بحزم عن الاسترسال في ترف الخلق، واستأنف تناول الطعام.

ولما خرج من البهو رأى أشندن كلبًا من نوع البول تيرير مربوطًا إلى قائمة إحدى المناضد. فلما مر به مد يده بصورة آلية كي يداعب أذني الكلب المتدليتين الناعمتين. وكانت ربة الفندق واقفة أسفل السلم، فسألها أشندن:

- لمن هذا الحيوان الجميل؟

فقالت ربة الفندق في حماسة:

- إنه يخص الهر كايبور. واسمه فريتزي. والهر كايبور يقول إن نسب فريتزي أعرق بكثير من سلسلة نسب ملك إنجلترا!

وجعل فريتزي يتمسح بساق أشندن ويتحسس بطرف أنفه الرطب راحة يده مسرورًا بملاطفته.

وصعد أشندن إلى حجرته كي يأتي بقبعته، ولما نزل رأى كايبور واقفًا عند مدخل الفندق يتحدث إلى ربته. ومن الصمت المفاجئ الذي ساد أدرك أن كايبور كان يسأل السيدة عنه.

ولما مر بينهما إلى الشارع رأى بطرف عينه أن كايبور ينظر إليه نظرة ارتياب، وإذ بذلك الوجه الضاحك وقد صار آية من الدهاء.

وتركه أشندن واستأنف مسيره إلى أن وجد حانة ذات شرفة يستطيع أن يتناول فيها قهوته في الهواء الطلق، وبعد القهوة قرر أن يعوض نفسه عن زجاجة البيرة التي تجرعها على مضض بدافع من الواجب على مائدة الغداء، فطلب أفخر كونياك يمكن أن تقدمه تلك الحانة.

والحقيقة أنه كان مسرورًا لأنه أخيرًا بدأ يواجه الرجل الذي طالما سمع عنه الكثير. وكان في مرجوه أن تنعقد بينهما صلة التعارف في مدى يوم أو يومين. وهو يعلم أنه ليس من العسير إطلاقًا أن يتعرف أي إنسان بشخص يقتني كلبًا عزيزًا عليه. بيد أنه لم يكن في عجلة من أمره. ولذا سيترك الأمور تجري في أعنتها. فالهدف الذي يسعى إلى تحقيقه لا يمكن أن يسمح له بالتعجل في العمل.

واستعرض أشندن الظروف التي تحيط بالمسألة، فوجد أن جرانتلي كايبور إنجليزي الجنسية ولد في برمنجهام وهو الآن في الثانية والأربعين من عمره، وزوجته التي اقترن بها منذ أحد عشر عامًا ألمانية المولد ألمانية الأبوين. وهذه هي المعلومات العامة عنهما.

أما المعلومات الخاصة عن ماضي حياة الرجل فهي مكتوبة في وثيقة سرية تذكر أنه بدأ الحياة في مكتب محامٍ في برمنجهام، ثم دخل ميدان الصحافة. واقترن اسمه بعدئذ بصحيفة إنجليزية تصدر في القاهرة، ثم بصحيفة أخرى

تصدر في شنغهاي. وفي شنغهاي اتهم بمحاولة اختلاس أموال بطريقة الاحتيال وأدين، وحكم عليه بالسجن فترة غير طويلة.

وبعد إطلاق سراحه اختفى كل أثر له مدة عامين، إلى أن ظهر مرة أخرى في مكتب لإدارة البواخر في مرسيليا. ومن مرسيليا انتقل للعمل في إدارة أخرى للبواخر بهامبورج. وهناك تزوج ثم انتقل للعمل في لندن، فأنشأ مكتبًا للتصدير والاستيراد، ولكنه فشل بعد زمن قصير وأعلن إفلاسه، فعاد إلى الصحافة. ولما أعلنت الحرب ترك الصحافة للعمل مرة أخرى في إدارة البواخر، وفي أغسطس سنة ١٩١٤ كان يعيش مع زوجته حياة هادئة جدًّا في ميناء سوثهامبتن.

وفي بداية سنة ١٩١٥ أبلغ رؤساءه أن جنسية زوجته الألمانية تجعل موقفه حرجًا لا يطاق. وكان رؤساؤه راضين عن عمله ومدركين لما يعانيه بسبب زوجته الألمانية، فنقلوه إلى فرع الشركة في جنوه. وظل هناك إلى أن دخلت إيطاليا الحرب في جانب الحلفاء، فاستقال واجتاز الحدود ليقيم في سويسرا بأوراق رسمية سليمة لا غبار عليها.

كل ذلك يدل على أن الرجل مطعون في أمانته، غير ميال للاستقرار، وليس له مورد مالي ثابت. ولكن ذلك لم يكن يعني أحدًا إلى أن اتضح أن كايبور كان بالتأكيد منذ بداية الحرب، وربما قبل ذلك بسنوات، جاسوسًا في خدمة إدارة المخابرات الألمانية. وكان المرتب الثابت الذي يتقاضاه من تلك الإدارة هو أربعون جنيهًا في الشهر.

ومع أن هذا في حد ذاته أمر خطير ومثير فإنه لم تتخذ أية خطوات إيجابية ضده إلى أن دخل في المسألة عنصر جديد. فلو أنه اكتفى بأن ينقل إلى الألمان الأنباء التي يمكنه الحصول عليها محليًّا في سويسرا، لما تحركت المخابرات الإنجليزية للقضاء عليه، فليس في ذلك ضرر يستحق المبالاة. بل لعله كان من الممكن استخدامه لتبليغ بعض المعلومات المراد إيهام الألمان بها.

ولم يكن كايبور يدري أن أمره كشف. وكانت خطاباته وهي كثيرة جدًّا تخضع لرقابة دقيقة. والاختصاصيون في المخابرات الإنجليزية لا يستعصي عليهم حل أية شفرة، ومع مضي الوقت كان من المستطاع معرفة فلول الجواسيس الذين يتعاملون معه في إنجلترا. وفي ذلك فائدة كبيرة. ولكن كايبور جلب على نفسه غضب الكولونيل. ولو أنه عرف معنى ذلك، لارتجف قلبه، لأن الكولونيل رجل لا يتورع عن شيء إذا ثارت ثائرته على أحد.

وجلية الأمر أن كايبور تعرف في زيوريخ بشاب اسمه جوميز، دخل منذ مدة قصيرة في خدمة المخابرات الإنجليزية. واستطاع كايبور بجنسيته الإنجليزية

أن يخدع الفتى الإسباني، ويكسب ثقته، ويبتز منه المعلومات، إلى أن عرف أنه يعمل في الجاسوسية لحساب إنجلترا. وترتب على ذلك أن كايبور وشى به إلى الألمان، فراقبوه عن كثب وعندما سافر إلى ألمانيا وضبط متلبسًا بتصدير خطاب مكتوب بالشفرة، وحل الألمان رموز تلك الشفرة، حاكموه وأدانوه ورموه بالرصاص!

وكان من المزعج أن تفقد إنجلترا جاسوسًا نافعًا مخلصًا في عمله وكان أسوأ من هذا أن تضطر لتغيير شفرة جواسيسها في تلك المنطقة. وثارت ثائرة الكولونيل، ولكنه كظم غيظه ورغبته في الانتقام، لأن مصلحة المخابرات عنده فوق كل اعتبار. فلو أن كايبور كان يخون وطنه حبًّا في المال فقط، لكان من الممكن إقناعه بأخذ أموال إنجليزية أكثر من الأموال الألمانية كي يخون مخدوميه. وسيكون ذلك سهلًا عليه بعد أن سلم إليهم الجاسوس الإنجليزي الإسباني الجنسية جوميز، فأثبت لهم إخلاصه لقضية ألمانيا... وفكر الكولونيل في هذا الاحتمال ثم كلف أشندن بالاتصال به ليحكم هل يمكن الاعتماد على كايبور في خدمة المخابرات الإنجليزية أم لا. فإن وجده صالحًا لهذا فعليه أن يجس نبضه ويقترح عليه ما يراه مناسبًا.

وهي مهمة تحتاج إلى لباقة شديدة ومعرفة دقيقة بنفوس البشر. أما إذا اتضح لأشندن أن كايبور لا يمكن شراء إخلاصه، فعليه أن يرصد حركاته ويخطر بها الرؤساء. وكانت المعلومات التي حصل عليها أشندن غامضة ولكنها هامة جدًّا. والطريف فيها أن رئيس المخابرات الألمانية في برن مستاء في المدة الأخيرة من كسل كايبور وعدم إنتاجه. وكان كايبور يطالب بعلاوة، ولكن الرئيس الألماني في برن رفض طلبه، وصارحه بأنه يجب أن يبدي مزيدًا من النشاط، ثم اقترح عليه أن يعود إلى إنجلترا.

وفي ذلك المعرض قال الكولونيل لأشندن بعد أن أطلعه على هذه المعلومات:

- إن استطعت أن تستدرجه إلى اجتياز الحدود تكون قد نجحت غاية النجاح.

فسأله أشندن متعجبًا:

- وكيف بحق الشيطان تتوقع مني أن أقنعه بوضع عنقه في حبل المشنقة؟

فضحك الكولونيل ضحكة بعثت القشعريرة في جسم أشندن وقال:

- إنها لن تكون مشنقة... بل كتيبة من الرماة!

- ولكن كايبور رجل ماكر.

فصاح الكولونيل في ضيق:

فلتكن أنت أمكر منه. تبًّا لك!

وقرر أشندن ألا يتخذ أية خطوات نحو التعرف بكايبور. وكل ما عليه هو تمهيد السبيل أمام كايبور كي يخطو الخطوات الأولى نحو التعرف به. وإذا استبطأ الكولونيل النتائج فلن يحيد عن هذه الخطة.

لقد أفهم ربة الفندق أنه موظف في إدارة الرقابة الإنجليزية، وقد نقلت حتمًا هذه المعلومات إلى كايبور. فلا شك أنه إن لم يكن عاجلًا فآجلًا سيسعى إلى مجاذبة أطراف الحديث مع إنجليزي يعمل في ذلك القطاع الحساس من الإدارة الحربية.

وفي الوقت نفسه كان الكولونيل قد زود أشندن بكمية من المعلومات التي لن تفيد الألمان في شيء. ولما كان أشندن يحمل هذه المرة اسمًا مستعارًا وجواز سفر مزيفًا، فليس من المحتمل أن يفطن كايبور إلى أنه بإزاء جاسوس إنجليزي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث عشر
دروس

ولم يطل انتظار أشندن. ففي اليوم التالي كان جالسًا بمدخل الفندق يحتسي قدحًا من القهوة، وقد ثقل جسمه، وكاد يغلبه النعاس على صحوه بعد وجبة غداء دسمة، عندما برز آل كايبور من قاعة المائدة.

وصعدت مسز كايبور إلى حجرتها، أما كايبور ففك عقال كلبه الذي أخذ في الوثب والقفز وبصورة ودية وثب على أشندن.

فصاح كايبور:

- تعال هنا يا فريتزي...

ثم التفت إلى أشندن وقال:

- إني آسف جدًّا، ولكنه لطيف للغاية.

فقال أشندن:

- أوه. لا بأس. إنه لن يؤذيني ووقف كايبور عند الباب، وقال:

- إنه من نوع البول تيرير. وهو نوع نادر الوجود في القارة الأوروبية.

ويبدو أنه كان وهو يتكلم يتفحص أشندن. ثم صاح بالخادمة:

- فنجان قهوة من فضلك يا آنسة.

والتفت إلى أشندن وقال له:

- لقد وصلت أخيرًا. أليس كذلك؟

- بلى. وصلت بالأمس.

فتصنع كايبور الدهشة وقال:

- أحقًّا؟ إني لم أرك بالأمس في قاعة الطعام. هل تنوي الإقامة طويلًا؟

- لا أدري فقد كنت مريضًا وجئت إلى هنا كي أسترد قواي.

وجاءت الخادمة بالقهوة. فلما رأت كايبور يتحدث إلى أشندن وضعت صينية القهوة فوق المائدة الجالس إليها أشندن. فضحك كايبور ضحكة تنبئ عن حرج يسير.

- أنا لا أريد أن أقحم نفسي عليك. لكني لا أعلم لماذا وضعت الخادمة قهوتي فوق مائدتك.

فقال أشندن:

- أرجوك أن تجلس.

- هذا كرم كبير منك. فقد عشت في القارة مدة طويلة حتى لقد أصبحت أنسى أن مواطني يعتبرونها صفاقة من المرء أن يكلمهم بغير معرفة سابقة، وبهذه المناسبة هل أنت إنجليزي أم أمريكي؟

فقال أشندن:

- بل إنجليزي.

وكان أشندن بطبيعته رجلًا خجولًا جدًّا. وقد اجتهد عبثًا أن يشفي نفسه من ذلك النقص الذي لا يتفق مع سنه. لكنه في بعض الأحيان يستغل هذه الصفة استغلالًا حسنًا. فأخذ يشرح في تردد وتلعثم الحقائق التي أخبر بها ربة الفندق في اليوم السابق وكان موقنًا أنها نقلتها إلى كايبور بحذافيرها. ولما انتهى منها قال كايبور:

- إنك ما كنت لتأتي الى مكان أفضل من لوسرن. فهي واحة من واحات السلام في هذا العالم الذي أنهكته الحرب. فإنك وأنت هنا في وسعك أن تنسى تقريبًا كل النسيان أن هناك حربًا عالمية ناشبة. وهذا هو السبب في أنني جئت للإقامة هنا. وأنا رجل مهنة الصحافة.

فقال أشندن وهو يبتسم ابتسامة خجلى:

- لقد خطر ببالي وأنا أسمعك تتكلم أنك تمارس الكتابة.

والحقيقة أنه كان واضحًا أن تعبيرًا مثل «واحة من واحات السلام في عالم أنهكته الحرب» لا يمكن أن يكون مما اكتسبه في مكاتب البواخر...

واستطرد كايبور وعلى وجهه أمارات الجد:

- والمسألة أنني متزوج من سيدة ألمانية.

فقال أشندن بسذاجة:

- حقًّا؟

- ولا أعتقد أنه يمكن أن يكون هناك من هو أشد وطنية مني. فأنا إنجليزي دمًا ولحمًا. ولست أبالي أن أقول لك إن الإمبراطورية البريطانية في اعتقادي هي أعظم أداة للخير عرفها العالم في تاريخه كله. ولكن زواجي من سيدة ألمانية

يجعلني أرى بصورة طبيعية أن هناك وجهة نظر أخرى. ولست بحاجة إلى أن تخبرني أن للألمان عيوبهم. ولكني بصراحة لست مستعدًّا للقول بأنهم الشيطان مجسدًا... وفي بداية الحرب قاست زوجتي الأمرين ونحن في إنجلترا. وأنا شخصيًّا لا أستطيع من جانبي أن ألومها لو أنها شعرت بالمرارة لذلك السبب. فكل إنسان هناك كان يظنها جاسوسة. ولا شك أن ذلك سيجعلك تضحك كثيرًا عندما تعرف شخصيتها، فهي نموذج ربة البيت الألمانية التي لا يعنيها من العالم كله شيء سوى بيتها وزوجها وطفلنا الوحيد فريتزي.

وربت كايبور على كلبه وأطلق ضحكة صغيرة:

- نعم يا فريتزي. أنت طفلنا. أليس كذلك؟

ثم استأنف حديثه إلى أشندن:

- وطبيعي أن هذا الموقف جعل مركزي حرجًا جدًّا في إنجلترا. وكنت متصلًا بعدد من أهم الصحف. فلم يكن محرروها مستريحين للوضع. ولا أطيل عليك أنني رأيت من الأكرم لي أن أستقيل وآتي للإقامة في بلد محايد إلى أن تنتهي العاصفة. وأنا وزوجتي لا نتناقش في موضوعات الحرب إطلاقًا. مع أنها أكثر تسامحًا مني وأكثر استعدادًا للنظر إلى هذه الكارثة العالمية من وجهة نظري.

- هذا غريب حقًّا، فالقاعدة أن النساء أشد تعصبًا من الرجال.

- إن امرأتي شخصية فذة جدًّا. وأحب أن أقدمها إليك وبهذه المناسبة لا أدري إن كنت تعرف اسمي: جرانتلي كايبور.

فقال أشندن:

- واسمي سومرفيل.

ثم حدثه عن العمل الذي كان مضطلعًا به في إدارة الرقابة. وخيل إليه أن ذكر وظيفته كان له صدى في بريق عيني كايبور. ثم أخبره أنه ينشد شخصًا يعطيه دروسًا في المحادثات الألمانية كي ينتهز الفرصة وينفض الصدأ عن معلوماته في تلك اللغة.

وأثناء الكلام خطرت له فكرة، فنظر إلى كايبور ورأى أن الفكرة نفسها خطرت له. أي إنها خطرت لكليهما في وقت واحد. ومفاد هذه الفكرة أن مسز كايبور تصلح أستاذًا ممتازًا لأشندن.

- لقد سألت ربة الفندق إن كانت تستطيع أن تنشد لي شخصًا، فقالت إنها تظن ذلك مستطاعًا. فيجب أن أعيد عليها السؤال. لأنه ليس من الصعب أن تجد رجلًا مستعدًّا للحضور كي يحدثني بالألمانية ساعة كل يوم.

فقال كايبور:

- أنا شخصيًّا لا آخذ بتزكية ربة الفندق في هذا. فأنت بحاجة إلى شخص يتكلم الألمانية الجيدة بلهجة أهل الشمال السليمة. في حين أن ربة الفندق لا تتكلم إلا باللهجة السويسرية. سأسأل زوجتي إن كانت تعرف لك أحدًا. وزوجتي امرأة متعلمة تعليمًا عاليًا جدًّا وتستطيع أن تثق بتزكيتها.

- هذا كرم عظيم منك.

وجعل أشندن يرمق جرانتلي كايبور على مهل، فلاحظ أن عينيه الصغيرتين الخضراوين فيهما مكر شديد لا يتفق مع الصراحة والمرح الباديين في ملامح وجهه. فهما عينان سريعتان ثاقبتان. ولكن إذا ومض في ذهنه خاطر مفاجئ تثبت نظرتهما فجأة. فهما عينان لا توحيان بالثقة. أما ما يعوض له ذلك النقص، وجهه الطيب الباسم العريض، وجسمه البدين، وصوته المرح العميق. وكان واضحًا أنه الآن يبذل غاية جهده كي يبدو لطيفًا أنيسًا. والحقيقة أن أشندن وجد صعوبة شديدة وهو يستمع إليه في تذكر أنه بإزاء جاسوس عادي، رضي أن يبيع وطنه بأربعين جنيهًا في الشهر.

وكان أشندن يعرف جوميز الشاب الإسباني الذي خانه كايبور. وجوميز فتى عالي الهمة محب للمغامرة، ولم يقبل القيام بخدمة المخابرات الإنجليزية رغبة منه في المال بل شوقًا إلى جو المغامرة والإثارة الرومانسية التي تقترن بالشعور بالإسهام في قهر الألمان. ولم يكن هينًا على أشندن أن يتصوره دفينًا في خندق ألماني على عمق ستة أقدام تحت فناء السجن. لأنه كان رشيقًا مرحًا حافلًا بعصارة الحياة. وتساءل أشندن بينه وبين نفسه: ألم يشعر كايبور بغصة تعترض حلقه وهو يسلمه إلى منيته.

وسأل كايبور أشندن وقد أثار الغريب اهتمامه:

- اظنك تعرف شيئًا من اللغة الألمانية؟

- طبعًا. فقد كنت طالبًا بألمانيا فترة من الوقت، وكنت أتكلم الألمانية بطلاقة، ولكن ذلك كان منذ زمن بعيد، فنسيت الكلام بها، ولكني أستطيع أن أقرأ بها في يسر.

- آه. لقد لاحظت أنك كنت تقرأ كتابًا ألمانيًّا مساء أمس.

يا له من أحمق! كان ينبغي أن يكون ذلك الكذوب ذكورًا. فمنذ هنيهة قال لأشندن إنه لم يره بالأمس. ولكن أشندن كان من الحصافة بحيث لم يظهر على وجهه ما يدل على فطنته إلى ذلك التناقض. وكان عليه أيضًا أن يتعظ بغلطة كايبور فيكون على حذر من الوقوع في مثلها. ومن يدري؟ لعل كايبور تعمد تلك الغلطةِ كي يقرأ أثرها على سحنة أشندن.

ونهض كايبور قائلًا:

- ها هي ذي زوجتي، فنحن نذهب كل عصر لنتسلق أحد الجبال. وأستطيع ان أدلك على نزهات بديعة سيرًا على الأقدام. والأزهار حتى في هذا الوقت من السنة رائعة الجمال.

فتنهد أشندن وقال:

- أخشى أنني لا بد أن أتريث إلى أن أسترد مزيدًا من عافيتي.

ومما ساعد أشندن على هذا الكذب أن وجهه كان شاحبًا بطبيعته ولا تبدو عليه قوته الحقيقية.

وهبطت مسز كايبور السلم وانضم إليها زوجها فسارا في الشارع وفريتزي يجري ويقفز بين أيديهما تارة ومن خلفهما تارة أخرى. ولاحظ أشندن أن كايبور بدأ على الفور في التحدث إلى زوجته بطلاقة. فلا شك في أنه كان يخبرها بنتائج محادثته مع أشندن.

ونظر أشندن إلى الشمس المشرقة في بهاء على البحيرة، والنسيم الرقيق يداعب في هوادة أوراق الأشجار الخضراء. فكان كل شيء يدعو إلى رياضة المشي. ولكنه نهض وصعد إلى حجرته، وارتمى على فراشه، واستغرق في نوم لذيذ.

ونزل إلى قاعة المائدة في المساء لتناول العشاء، فوجد آل كايبور يختمان وجبتيهما، وفي طريقهما للانصراف من القاعة وقف كايبور أمامه ودعاه لتناول القهوة معهما في البهو. فلما لحق بهما هناك وقف كايبور وقدمه إلى زوجته، فانحنت في تصلب ولم ترد على ترحيب أشندن المهذب ولو بابتسامة. فلم يكن من العسير أن يدرك أن مسلكها عدائي تمامًا. وقد شعر أشندن بالراحة لذلك.

وكانت مسز كايبور امرأة عاطلة من الجمال تقارب الأربعين من عمرها، بشرتها جافة خشنة وملامحها غير محددة، وشعرها مصفف في حلقة حول رأسها على طراز ملكة بروسيا في عصر نابليون. وهي ذات قامة ربعة أقرب إلى الامتلاء منها إلى البدانة، متينة البنية. ولكن لا يبدو عليها الغباء بل بالعكس تبدو امرأة ذات طبع قوي.

وكان أشندن قد قضى من حياته شطرًا كافيًا في ألمانيا فعرف نسوة من ذلك النمط. ولم يكن ليدهشه أن تجمع بين القدرة والكفاءة في أعمال البيت، والبراعة في الطهو، والمهارة في تسلق الجبال، والإحاطة بالمعارف العامة والثقافة الرفيعة.

وكانت ترتدي ثوبًا أبيض زاد في وضوح سمرة عنقها، وقد انتعلت حذاء ثقيلًا. وكلمها كايبور بالإنجليزية فأخبرها بلهجة مرحة بما أحاطه به أشندن من معلومات عن نفسه، كأنها لم تعرف ذلك منه من قبل. ولكنها كانت تصغي متجهمة.

والتفت كايبور إلى أشندن فقال له بوجه باسم وعينين نفاذتين لا تستقران من شدة التيقظ:

- أظنك أخبرتني أنك تفهم الألمانية.

فقال أشندن:

- نعم. فقد كنت طالبًا مدة من الزمن في جامعة هايدلبرج.

فقالت مسز كايبور بالإنجليزية وقد ظهرت على سحنتها إثارة يسيرة من الاهتمام:

- حقًّا؟ إني أعرف هايدلبرج معرفة جيدة. لأني قضيت سنة كاملة تلميذة في إحدى مدارسها.

وكانت إنجليزيتها صحيحة، ولكن مخارج الحروف الحلقية غير مستحبة. وانبرى أشندن يطري المدينة الجامعية العتيقة، وجمال المناظر في المنطقة المحيطة بها، فكانت تستمع لما يقول من علياء شعورها التيوتوني بالتفوق، في تسامح وإغضاء لا في حماسة. ثم قالت:

من المعروف تمامًا أن وادي نكار من أجمل المواضع في العالم أجمع.

وعندئذ قال كايبور:

لم أخبرك يا عزيزتي أن مستر سومرفيل يبحث عن شخص يلقنه دروسًا في المحادثات الألمانية مدة إقامته هنا. فقلت له إنك ربما استطعت أن ترشحي له معلمًا.

فقالت بالألمانية:

- كلا. أنا لا أعرف أحدًا يمكن أن أزكيه عن ثقة. فاللهجة السويسرية كريهة كراهة لا توصف. ولن يستفيد بل يضار مستر سومرفيل إذا تحدث مع سويسري بالألمانية.

فقال كايبور:

- لو كنت في مكانك يا مستر سومرفيل لحاولت أن أغري زوجتي بتلقيني هذه الدروس. فهي إن جاز لي أن أقول امرأة مثقفة جدًّا ومتعلمة تعليمًا عاليًا.

فصاحت زوجته:

- أخ! ليس لدي وقت لهذا يا جرانتلي. فعندي عملي الخاص. وأدرك أشندن أن الفرصة أتيحت له. فالفخ أمامه، وكل ما عليه أن يتردى فيه. فالتفت إلى مسز كايبور وقال بلهجة اجتهد أن يشوبها الخجل والتوسل والتواضع:

- إنه لشيء عظيم حقًّا لو أنك تكرمت بتلقيني هذه الدروس. سأعتبرها خدمة جليلة وخطوة عظيمة. وأنا بطبيعة الحال لا أريد أن أتدخل في عملك، فالغرض الرئيسي من وجودي هنا هو استرداد عافيتي. وليس عندي أي عمل يشغلني. وسوف يوافقني أي موعد تحددينه لهذه الدروس على حسب أوقاتك.

وأحس بشرارة رضا وسرور تنتقل من الزوج إلى الزوجة. ولمح وميضًا خفيفًا في عيني مسز كايبور الزرقاوين. وقال كايبور:

- إنها طبعًا ستكون مسألة عملية على أساس واضح. فليس هناك ما يدعو إطلاقًا ألا تجني زوجتي الطيبة شيئًا من المال. فهل تعتقد أن عشرة فرنكات سويسرية في الساعة أجرًا عاليًا؟

فقال أشندن على الفور:

- إطلاقًا. بل إني أعتبر نفسي محظوظًا إذا ظفرت بأستاذة الدرجة الأولى لقاء هذا المبلغ.

فقال كايبور لزوجته بحماسة:

- وما قولك الآن يا عزيزتي؟ إنك بالتأكيد تستطيعين أن توفري من وقتك ساعة كل يوم كى تسدي إلى هذا السيد مكرمة. فيعلم أن ليس جميع الألمان شياطين كما يظنونهم في إنجلترا.

وقطبت مسز كايبور حاجبيها تقطيبًا شديدًا جعل أشندن يدرك الجو الذي ينتظره في ساعة الدرس اليومية التي سيقضيها في تبادل الأحاديث معها. والله وحده يعلم كيف سيجهد دماغه بحثًا عن موضوعات للكلام مع هذه المرأة الثقيلة الواجمة! ورآها تبذل مجهودًا شديدًا كي تقول:

- سيسرني غاية السرور أن أعطي مستر سومرفيل دروسًا يومية في المحادثة باللغة الألمانية.

فقال كايبور مهللًا:

مبروك يا مستر سومرفيل. لقد ربحت هذه الصفقة. والآن متى تريد أن تبدأ الدروس؟ أيوافقك الغد؟

- في أية ساعة؟

- الساعة الحادية عشرة.

- هذه الساعة تناسبني جدًّا إذا كانت تناسب مسز كايبور.

فقالت بعدم اكتراث:

- إنها ساعة كأية ساعة أخرى.

وتركهما أشندن ليناقشا على سجيتهما النتيجة الرابحة التي تمخضت عنها مناوراتهما الدبلوماسية.

وفي الحادية عشرة من صباح اليوم التالي بالضبط سمع طرقًا خفيفًا على باب حجرته. ففتح الباب وهو لا يخلو من توجس. لأنه يجب أن يكون في غاية التيقظ في حديثه مع هذه السيدة الألمانية الذكية المتوترة الأعصاب وفي الوقت نفسه يجب أن تظهر عليه باستمرار دلائل الراحة والبساطة.

وكان وجه مسز كايبور مقطبًا عندما دخلت مما يدل بوضوح على أنها متكرهة من وجود أية صلة بينها وبينه. ولكنها جلست وبدأت بغير مقدمات تسأله عن معلوماته في الأدب الألماني. وكانت تصحح له أخطاءه بدقة. وحين يستفسرها عن بعض المصاعب التي يجدها في تركيب الجملة، كانت تشرح له كل شيء بوضوح ودقة.

وهذا يدل على أنها إذا كانت تكره من صميم قلبها أن تكون بينها وبينه أية معاملة، فإنها كانت عازمة على القيام بذلك العمل بكل أمانة. وكان واضحًا أيضًا أنها لا تملك الكفاءة للتعليم فحسب، بل وتحب تلك المهنة أيضًا. وبمرور الدقائق انطلق لسانها وأبدت مزيدًا من الهمة والاهتمام، حتى صارت بحاجة إلى جهد كي لا تنسى أنها بإزاء إنجليزي بهيم همجي.

وكانت ملاحظة ذلك الصراع تتيح لأشندن شيئًا من الرياضة الممتعة. لذلك كان صادقًا عندما سأله كايبور بعد الغداء عن الدرس، فأجابه بأنه راضٍ كل الرضا. وأن مسز كايبور أستاذة ممتازة وشخصية جديرة بالاعتبار.

وهتف كايبور متهللًا:

- ألم أقل لك هذا؟ إنها أعظم امراة عرفتها!

وشعر أشندن أن كايبور وهو يقول هذا الكلام بطريقته الصاخبة الضاحكة كان صادقًا مخلصًا لأول مرة.

وبعد يوم أو يومين عرف أشندن أن مسز كايبور كانت تعطيه هذه الدروس لغرض واحد وهو تمكين زوجها كايبور من مزيد من القربى بينه وبين أشندن.

فقد حصرت نفسها بدقة في مسائل الأدب والموسيقا والرسم. ولما حاول أشندن أن يختبرها وطرق موضوع الحرب، لم يكن منها إلا أن أوقفته عند حده قائلة:

- أظن أن هذا موضوع يحسن بكلينا أن نتجنبه يا هر سومرفيل.

واستمرت تعطيه الدروس بدراية تامة، بحيث يظفر بمقابل عادل للأجر الذي يؤديه، ولكنها كانت تأتي كل يوم بنفس الوجه الكالح المقطب، ولم يفارقها هذا الكره إلا تحت حماسة التدريس. وجرب أشندن جميع أساليبه من تقرب وامتنان وتواضع وتملق وحياء، ولكنها احتفظت بعدائها وبرودها. إنها من الطراز المتعصب من البشر. ووطنيتها وطنية عدوانية ولكنها نزيهة. وسر كراهيتها لإنجلترا والإنجليز أنها ترى في تلك الإمبراطوية العقبة الأساسية في وجه السيادة الألمانية على العالم.

إن مثلها الأعلى عالم ألماني تكون فيه جميع الأمم غير الألمانية خاضعة لألمانيا، كما كانت روما سيدة العالم القديم، بحيث ينعم أهل الأرض كافة بمزايا العلم الألماني والفن الألماني والثقافة الألمانية.

ولم تكن هذه السيدة بلهاء. فقد قرأت كثيرًا في لغات شتى وكانت تستطيع أن تتكلم عن الكتب التي قرأتها كلامًا ينم على ذوق وحس، وكانت لديها معلومات عن الرسم الحديث والموسيقا الحديثة بهرت أشندن.

وأعجبه أن يسمعها ذات مرة قبل الغداء تعزف مقطوعة صغيرة لطيفة للموسيقي الفرنسى دي بوسي. وكانت تعزفها في ازدراء لأن المؤلف فرنسي وموسيقاه خفيفة، ولكن مع تقدير على مضض لرشاقتها ومرحها. ولما هنأها أشندن على إجادة العزف هزت كتفيها وقالت:

- موسيقا مضمحلة لأمة مضمحلة.

ثم بدات بيديها القويتين تعزف المقطوعة الأولى لإحدى سمفونيات بيتهوفن. ثم لم تلبث أن كفت قائلة:

- ماذا تعرفون أيها الإنجليز عن الموسيقا؟

فابتسم أشندن وقال لكايبور:

- مارأيك في هذا؟

- أنا أعترف بهذه الحقيقة، فالقليل الذي أعرفه عن الموسيقا تعلمته من زوجتي. وليتك تسمعها وهي تعزف شيئًا ممتازًا، فإن قلبك سيهتز حتمًا لروعة ذلك الجمال الصافي.

فقالت الألمانية وقد لانت أساريرها لإطراء زوجها قليلًا:

- أنتم معشر الإنجليز لا تحسنون الرسم ولا النحت ولا الموسيقا.

فقال أشندن في ابتسام:

- ولكن نفرًا منا يحسنون نظم الشعر.

- هذا شيء أعترف به. أنتم شعراء. ولست أدري السر.

والتفتت إلى زوجها قائلة:

- هيا يا جرانتلي إلى قاعة الطعام فقد أعد الغداء.

وتركا أشندن مفكرًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع عشر
صداقة

وأشندن بطبيعته شديد الإعجاب بالفضيلة، ولكنه لا يشمئز ولا يستاء من الشر والرذيلة. وكان الناس في بعض الأحيان يحسبونه إنسانًا بلا قلب، لأنه كان يهتم اهتمامًا ذهنيًّا بالآخرين من غير أن يتعلق قلبه بهم. وحتى القلة من الناس الذين تعلق بهم كانت عينه ترى في نزاهة وجلاء جانبي المزايا والنقائص فيهم. فعندما يحب إنسانًا لم يكن حبه له لأنه عمي عن عيوبه، بل لأنه لا يبالي بتلك العيوب، ويقبلها في تساهل وهو يهز كتفيه، أو يقارنها بمزاياه فتطغى المزايا على العيوب. ولأنه كان يزن أصحابه بميزان حصيف لم يخب أمله في أحد منهم، ولذا لم يفقد صداقة أحد. ولم يطالب يومًا صديقًا له بأكثر مما يستطيع.

وبفضل هذه السليقة استطاع أشندن أن يرقب آل كايبور ويدرس الشخصيتين من غير تجنٍّ ولا تحيز. فبدت له مسز كايبور غير معقدة التركيب وهي لهذا أيسر فهمًا من زوجها، كان واضحًا جدًّا أنها تكره أشندن، مع أن ظروفها تحتم عليها أن تكون شديدة التهذيب في معاملته. مما جعل عواطفها تغلبها على أمرها في بعض الأحيان، فتكون لهجتها في مخاطبته نابضة بالفظاظة. ولاحظ أيضًا من الاختلاج الخفيف الذي يعتري شفتيها حين يربت زوجها، بيده الغليظة على كتفها في حنان، أنها شديدة الارتباط بزوجها، وأن الحب الذي بينهما صادق عميق مؤثر.

وجعل أشندن يدون الملاحظات التي تتجمع له في الأيام القليلة الأولى إلى أن ثبت له أن مسز كايبور تحب زوجها لأن طبعها أقوى من طبعه ولأنها تشعر باعتماده عليها، كانت تحبه لإعجابه بها.

وكان من السهل إدراك أن هذه المرأة العاطلة من الجمال، المجردة من روح الفكاهة والأناقة والجاذبية، لم تصادف في حياتها رجلًا أعجب بها قبل أن تلتقي بكايبور، ولذا صار إعجابه جوهريًّا لأنوثتها. وأصبحت تستسيغ مرحه ونكاته الصاخبة كأنه طفل كبير كثير الضجة. فهي أقرب في شعورها نحوه إلى الأمومة. وهي تحبه وترعاه وتغضي عن مواطن ضعفه، التي لا شك في أنها لم تكن خافية على فطنتها.

وأما من جهة الجاسوسية فإن أشندن على الرغم من تساهله الشديد إزاء الضعف البشري، كان ينظر إلى خيانة المرء لوطنه نظير ثمن مالي نظرة قاسية. ولا شك أن زوجته كانت تعرف أنه جاسوس. ولعل اتصال الألمان به في البداية كان عن طريقها. ولعله لم يكن ليقبل القيام بذلك العمل الشائن

لولا أنها دفعته إليه دفعًا. وهي امرأة مستقيمة أمينة تحب زوجها، فأية وسيلة ملتوية لجأت إليها كي تقنع نفسها بشرعية إكراه زوجها على قبول مهمة معيبة وضيعة مثل هذه المهمة؟ هذا سؤال لم يستطع أشندن أن يجد له جوابًا على ضوء تصوره لتركيب مسز كايبور النفسي.

أما جرانتلي كايبور فله شأن آخر. إذ ليس فيه ما يسترعي الإعجاب. ولكن أشندن لم يكن يبحث عن موضوع للإعجاب. وكان في كايبور أشياء كثيرة غريبة وفذة وغير متوقعة في ذلك المخلوق السوقي. وكان أشندن يرقب باستمتاع أساليب كايبور في محاولة استدراجه إلى حبائله. فبعد يومين اثنين من الدرس الأول أقبل كايبور بعد العشاء وقد صعدت زوجته إلى حجرتها فألقى بنفسه في مقعد بجوار أشندن. وجاء فريتزي فوضع رأسه فوق ركبته. فقال كايبور:

- إنه مخلوق بلا عقل. ولكن قلبه من ذهب. انظر إلى هاتين العينين الحمراوين وخبرني، هل رأيت في حياتك نظيرًا لهما في الغباء؟ وما أقبح وجهه، ولكن ما أشد سحره!

- أله عندك مدة طويلة؟

- من قبيل إعلان الحرب. وبهذه المناسبة ما رأيك في أخبار اليوم؟ إنني طبعًا لا أتناقش في هذه الأمور مع زوجتي. فلا تستطيع أن تتصور مدى سروري إذ أجد مواطنًا لي في لوسرن أفتح له قلبي.

وقدم إلى أشندن سيجارًا سويسريًّا رخيصًا وقبله أشندن على سبيل التضحية الكريهة. واستطرد كايبور يقول:

- إن الألمان طبعًا ليست أمامهم أية فرصة للنصر. وكنت موقنًا من هزيمتهم منذ دخلنا المعركة. والحقيقة أنني حزنت حزن العمر كله عندما أدركت أن جنسية زوجتي تقف بيني وبين الاشتراك في أي عمل من أعمال الحرب. وقد حاولت أن أتطوع منذ أعلنت الحرب ولكنهم لم يقبلوا تطوعي بسبب سني. ولست أبالي أن أخبرك أنه في حالة استمرار الحرب إلى أمد طويل فلا بد أن أصنع شيئًا. ولا شك أن معرفتي بلغات كثيرة يمكن أن تجعلني أداة نافعة في الرقابة مثلًا. وهذا فيما أظن هو الديوان الذي تعمل فيه. أليس كذلك؟

وكان هذا هو الموضوع الذي يريد الوصول إليه. ولما كان أشندن يتوقع منه تلك الخطوة، فقد رد عليه بالأجوبة التي أعدها من قبل. وأدنى كايبور مقعده قليلًا من أشندن وقال بصوت خفيض:

- إنك طبعًا لن تخبرني بأي شيء من الأسرار التي لا ينبغي البوح بها. ولكن هؤلاء السويسريين في لوسرن ضالعون مع الألمان بصورة واضحة، ولا نريد

أن نتيح لأحد منهم فرصة استراق السمع.

وشرع يخبر أشندن بعدة أشياء ومعلومات لها صفة سرية ثم قال:

- هذه أمور ما كنت لأخبر بها أحدًا سواك. ولكن لي أصدقاء في مناصب ذات نفوذ ولهم بي ثقة.

وتظاهر أشندن بالثقة أيضًا وأفضى إليه بعدة أشياء لها صفة السرية. بحيث افترقا وكل منهما مستريح لما حصل عليه من ثقة الآخر. وأيقن أشندن أن آلة كايبور الكاتبة دائبة على العمل في اليوم التالي، وأن رئيس المخابرات الألمانية في برن سيتلقى عن قريب تقريرًا ممتعًا جدًّا من كايبور.

وذات مساء بعد العشاء صعد أشندن متوجهًا إلى حجرته فمر بباب حمام مفتوح ورأى بداخله آل كايبور، وصاح كايبور بلهجته الودود.

- ادخل. إننا نغسل فريتزي.

وكان الكلب يلطخ نفسه دائمًا بالأقذار مع أن آل كايبور يعتزان جدًّا بنظافته. ودخل أشندن فوجدهما منهمكين في عملية الاستحمام. وقال كايبور وهو يدعك بالصابون فروة فريتزي:

إننا مضطرون للقيام بهذه العملية ليلًا. لأن آل فيزجيرالد يستخدمون هذا الحمام ويغضبهم جدًّا أن يستخدمه كلبنا لذا ننتظر إلى أن يناموا. هيا يا فريتزي أظهر حسن تربيتك وأنا أصبن لك عينيك.

وأخذ الكلب يهز ذيله إظهارًا لتهذيبه ودماثته. وكايبور لا يكف عن التنظيف وهو يثرثر ملاطفًا كلبه كأنما يتحايل عليه تحايل الأب الحنون على طفله الصغير. ومسز كايبور تصغي وتبتسم ابتسامة يسيرة من غير أن تفارق مسحة الجد ملامح وجهها:

- والآن اذهب إلى أمك كي تتولى تجفيف جسمك!

فجلست مسز كايبور وتلقته بين ساقيها القويتين وجعلت تجففه جيدًا إلى أن طفر العرق من جبينها... وتأثر أشندن جدًّا بهذا المنظر العائلي الهادئ حتى أنه كان يرتجف قليلًا، وهو يستأنف طريقه إلى حجرته.

وفي يوم من أيام الأحد أخبره كايبور أنه سيذهب مع زوجته في رحلة بالجبال، وسيتناولان الغداء في مطعم جبلي صغير، واقترح على أشندن أن يصحبهما وكل منهم على نفقته الخاصة طبعًا. وكان قد انقضى على حضوره إلى لوسرن ثلاثة أسابيع، فقدر أشندن أنها مدة كافية للنقاهة بحيث يكون معقولًا أن يخرج في مثل تلك النزهة. وخرج الثلاثة معًا. وقد قرر أشندن أن يكون على حذرٍ فليس من المستبعد أن يكون كايبور اكتشف صنعته الحقيقية، فمن

الأفضل أن يكون على حذر ولا يقترب من حافة هوة في الجبل، لأن مسز كايبور في هذه الحالة لن تتردد في دفعه بيديها القويتين خدمة لوطنها. وفي الوقت نفسه لم يسمح لحذره أن يفسد عليه استمتاعه بالرحلة والمناظر والجو البديع في ذلك النهار.

ولم يكف كايبور عن الكلام، وروى حكايات كثيرة مضحكة. وكان يضحك من نفسه لأن العرق يتصبب من وجهه الأحمر البدين، وأدهش أشندن بمعلوماته المستفيضة عن الأزهار الجبلية. وكان ينتقي منها نماذج بديعة، ويظهر في عينيه الإعجاب والخشوع.

فقالت زوجه:

- إن علم النبات هو هواية زوجي. وأحيانًا أضحك منه ومن تعلقه بالأزهار. وفي كثير من الأحيان عندما نكون في ضائقة لا تسمح لنا بدفع مطلوبات الجزار، أراه ينفق كل ما في جيبه ليأتيني بطاقة من الورد.

وكان أشندن موقنًا من صدق تعلق كايبور بالأزهار، وعمق حبه لها ولزوجته. وذلك يدل على رقة في إحساسه لم يعجب أشندن من وجودها لدى رجل دفع بالشاب الإسباني إلى الموت. فالقلب الإنساني يتسع للنقائض.

وعندما وصل الثلاثة إلى المطعم الجبلي المطل على البحيرة، كان ممتعًا حقًّا أن يرى كايبور يصب في حلقه بتلذذ عظيم زجاجة مثلوجة من البيرة. وما كان بوسعك ألا تتجاوب مع رجل يحب اللذات البسيطة في الحياة بهذا السرور الواضح.

وتناول الثلاثة الطعام في الشرفة الجميلة وقد سحرهم المنظر الخلاب، حتى أن الدموع طفرت إلى عيني مسز كايبور، فقالت:

- ما أشد خجلي من نفسي! فبالرغم من علمي أن مذبحة عالمية تدور من حولنا، لا أستطيع أن أشعر في أعماق قلبي في هذه اللحظة إلا بالسعادة والامتنان.

فتناول كايبور يدها وضغط عليها وأخذ يناديها بألفاظ التدليل باللغة الألمانية، فتأثر أشندن تأثرًا عظيمًا وتركهما ليخلوا إلى نفسيهما، وذهب يتجول في الحديقة. ثم جلس فوق مقعد حجري هناك، وأخذ يقلب في ذهنه مأساة هذا الإنسان الغريب الأطوار الذي تجتمع فيه البساطة والرقة والخسة والمرح وخفة الدم. وحاول أن يحل اللغز الذي دفع به إلى سلوك هذه الطريق الشائكة. ولم يجد حلًّا يرضي عقله. وتمنى لو أن الناس في هذه الدنيا كان كل منهم إما أبيض وإما أسود بغير اختلاط أو تنويع.

هل كايبور إنسان طيب أحب الشر أم هو إنسان شرير أحب الخير؟ وكيف أمكن أن توجد فيه جنبًا إلى جنب، وفي اتساق تام، كل هذه الصفات المتضادة؟ إنه خائن لا يؤنبه ضميره على خيانته بل يجد فيها لذة!

إنه الآن موقن أن كايبور يجد سعادة وزهوًا في خيانة وطنه، لذا فمن العبث أن يحاول الوصول معه إلى اتفاق لشراء خدماته لبلاده. وتأثير زوجته عليه شديد جدًّا، وهو في أعماق نفسه معتقد أن النصر معقود للألمان في النهاية، وهو يريد أن يكون مع الفريق الظافر.

لا حيلة في الأمر إذن، ويجب الإيقاع بهذه الشخصية الفريدة ولكنه حتى الآن لا يعرف كيف سيكون سبيله إلى ذلك.

ونبهه صوت آل كايبور مقبلًا نحوه:

- أين ذهبت؟ أنت معذور في الاختلاء بنفسك أمام هذا الجمال الساحر. وهذا طبعًا تغيير كبير تشعر به بعد معيشة الحرب المرهقة للأعصاب في إنجلترا.

- الفرق كبير جدًّا.

وبهذه المناسبة هل وجدت صعوبة في مبارحة البلاد؟

- لم أجد أدني صعوبة.

- قيل لي إنهم يدققون كثيرًا على الحدود في هذه الأيام.

- لم أجد أية صعوبة ولا أظنهم يدققون كثيرًا مع الإنجليز. حتى لقد خيل إليَّ أن فحص جواز السفر كان صوريًّا.

وتبادل الزوجان نظرة خاطفة حار أشندن في فهم مغزاها. ولعل كايبور يفكر في احتمال العودة إلى إنجلترا لغرض ما.

واقترحت مسز كايبور أن يعودا إلى لوسرن...

وبعد يومين من هذه النزهة أيقن أشندن أن في الجو شيئًا. ففي غضون درس الصباح قالت له مسز كايبور:

- سافر زوجي إلى جنيف اليوم لعمل يخصه.

- وهل سيمكث هناك طويلًا؟

- كلا. يومين لا أكثر.

وأحس إحساسًا غامضًا أنها تكذب وخطر له أن كايبور استدعي إلى برن لمقابلة رئيس المخابرات الألمانية هناك. لذلك انتهز أشندن الفرصة وقال

للخادمة أثناء الغداء:

- عندك اليوم عمل أقل يا آنسة. فقد سمعت أن الهر كايبور سافر إلى برن.

- نعم، ولكنه سيعود غدًا.

ولم يكن هذا إثباتًا كافيًا لظنونه، ولكنه علامة على أن رأيه قد يكون صحيحًا. وكان يعرف في لوسرن سويسريًّا على استعداد في أوقات الضرورة للقيام بما يكلفه به من مهام، فطلب منه أشندن أن يحمل خطابًا إلى برن. وكان الخطاب يوصي بالبحث عن كايبور هناك وتعقب حركاته.

وفي اليوم التالي ظهر كايبور مع زوجته على مائدة العشاء. لكنه اكتفى بأن هز رأسه لأشندن. وبعد الطعام صعد الزوجان توًّا إلى حجرتهما والاضطراب بادٍ عليهما، حتى أن كايبور كان يسير على غير عادته مقوس الكتفين لا ينظر يمنة ولا يسرة.

وفي اليوم التالي تلقى نونه. فقد كان كايبور هناك وقابل رئيس المخابرات الألمانية، فأيقن أشندن أن المقابلة كانت صدمة لكايبور. وأن الألمان سئموا دفع مرتب كايبور وهو قابع في لوسرن لا يؤدي أي عمل. وغالبًا يكون قد استحثه على العودة إلى إنجلترا لخدمة الألمان هناك.

هذا مجرد تخمين طبعًا. ولكن صناعة الجاسوسية تعتمد على التخمين والفطنة إلى حد كبير. وكان أشندن يعلم من جوستاف أن الألمان يريدون إرسال شخص ما إلى إنجلترا للإشراف على جواسيسهم هناك. فإن صح ذلك التخمين فقد سنحت الفرصة لإعداد الكمين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس عشر
الفخ

وفي اليوم التالي عندما حضرت مسز كايبور لتعطيه درسًا كانت واجمة وغير مستقرة ويبدو عليها الإعياء. وأدرك أشندن أن آل كايبور قضيا معظم الليل يتكلمان. وتمنى لو عرف ما تبادلاه من حديث، وهل استحثته على السفر أم حاولت أن تثنيه عنه.

وجعل أشندن يرقبهما أثناء الغداء، فلاحظ أنهما لم يتبادلا كلمة واحدة على خلاف العادة، ثم غادرا المائدة مبكرين، ولكن عندما انصرف أشندن رأى كايبور جالسًا في البهو بمفرده فبادر أشندن قائلًا:

- أهلًا بك. كيف حالك؟ لقد كنت في جنيف. هكذا قيل لي.

- تعال تناول قهوتك معي فزوجتي المسكينة مصابة بالصداع. وقد قلت لها إن من الخير أن ترقد قليلًا، والمسألة أن المسكينة منزعجة، لأني أفكر في السفر إلى إنجلترا.

فضبط أشندن أعصابه ولم يظهر عليه أي رد فعل وقال:

- وهل ستطول غيبتك هناك؟ سنفتقدك.

- الحقيقة أني سئمت هذا التعطل. ويبدو أن الحرب ستطول كثيرًا، وليس في استطاعتي أن أبقى هنا إلى الأبد، فضلًا عن أني لا أملك الموارد الكافية للإقامة المستديمة هنا. فيجب أن أكسب قوتي. ومهما كانت زوجتي ألمانية، فلا بد أن أقوم بنصيبي من الواجب الوطني. وزوجتي متمسكة بوجهة نظرها الألمانية ولا أكتمك أنها مستاءة. وأنت تعرف خصال النساء في هذه الأمور.

وكان واضحًا في نظرات كايبور أنه خائف من السفر إلى إنجلترا ويريد البقاء في سويسرا. ولكن البقاء معناه ضياع المرتب الشهري وهو بطبيعة الحال كان يريد من زوجته أن تحرضه على البقاء. ولكنه لم يجد لديها ما ينتظر. ولعله لم يستطع أن يظهر لها ما يكنه من الفزع.

وسأله أشندن:

- وهل ستأخذ زوجتك معك؟

- كلا. إنها ستبقى هنا.

ومعنى ذلك أن مسز كايبور ستتلقى خطاباته وتحولها إلى رئيس المخابرات في برن ليستخلص ما فيها من معلومات شفرية.

واستطرد كايبور:

- لقد طال بعدي عن إنجلترا ولست أدري كيف أحصل على عمل يساعد في المجهود الحربي الآن. فماذا كنت تصنع لو كنت في مكاني؟

- لا أدري، ما هو نوع العمل الذي تفكر فيه؟

- أظنني أستطيع أن أقوم بمثل العمل الذي تمارسه، فليتك تعطيني خطاب توصية إلى أحد معارفك في إدارة الرقابة.

ولا شك أنه سيكون كسبًا عظيمًا للألمان أن يكون لهم جاسوس في إدارة الرقابة. وأدرك أشندن أن كايبور أخبر الرئيس في برن أن موظفًا في الرقابة البريطانية يستجم في لوسرن فرسم له تلك الخطة.

- إن رئيس الإدارة يعزني كثيرًا وأستطيع أن أعطيك جواب توصية إن شئت.

- أكون شاكرًا جدًّا.

- ولكني بطبيعة الحال سأذكر له جميع الحقائق المتعلقة بك. وسأقول أيضًا إني التقيت بك هنا ولم أعرفك إلا منذ أسبوعين.

- طبعًا طبعًا، ولا أدري حتى الآن هل أستطيع الحصول على تأشيرة بالدخول أم لا.

- لا أظنك ستجد أدنى صعوبة.

ووقف كايبور فجأة وقال:

- يجب ان أصعد لأرى زوجتي وأطمئن عليها. متى ستكتب لي الخطاب؟

- في أي وقت تشاء. هل ستسافر فورًا؟

- بأسرع ما يمكن.

وتركه كايبور. وبقي أشندن ربع ساعة ثم أسرع إلى حجرته وحرر عدة خطابات منها تقرير إلى الكولونيل. وتعليمات إلى السفارة في برن كي تعطي كايبور تأشيرة الدخول إلى إنجلترا فور طلبها. وكتب أيضًا خطاب التوصية الذي طلبه كايبور...

وفي ساعة العشاء سلم أشندن إلى كايبور خطاب التوصية.

وبعد يومين غادر كايبور لوسرن وبقي أشندن، واستمر يتلقى دروسه اليومية على يد مسز كايبور، وقد أصبح لسانه طلقًا في اللغة الألمانية وكثرت

أحاديثهما عن جيته وعن الفن والحياة والرحلات. وكان فريتزي يقبع بجوار مقعديهما في هدوء، وتجذب أذنيه وتقول:

- إن المسكين يفتقد سيده. الحقيقة أنه لا يحب غيره، ويتقبلني إكرامًا لخاطره فقط.

وبعد انتهاء الدرس في كل صباح كان أشندن يذهب إلى مكتب شركة كوك ليسأل عن خطابات له فقد جعل عنوانه هناك. وكانت التعليمات الصادرة إليه ألا يغادر لوسرن إلا بعد صدور أوامر جديدة. فلم يكن أمامه سوى الانتظار.

وبعد أيام قليلة تلقى خطابًا من القنصلية في جنيف يفيد أن كايبور طلب تأشيرة الدخول وحصل عليها ورحل عن طريق فرنسا. ولما قرأ أشندن هذه الأنباء ذهب للنزهة على الأقدام على شاطئ البحيرة. وعند عودته رأى مسز كايبور خارجة من مكتب كوك. فأدرك أنها جعلت عنوان مراسلاتها هناك أيضًا. وحياها قائلًا:

- هل جاءتك أنباء من هر كايبور؟

- لم تصلني خطابات منه بعد.

وسار بجانبها وكانت قلقة بعض الشيء. ولكن في اليوم التالي لاحظ أنها كانت غير مستقرة أثناء الدرس. وكان البريد يصل عند الظهر. فاستأذنت قبل انتهاء الدرس بخمس دقائق. وكان أشندن يعلم أنها لن تتلقى من كايبور أية خطابات.

وبعد قليل ذهب أشندن إلى مكتب كوك فوجدها واقفة هناك ممتقعة الوجه. ولما رأته صاحت:

- لقد وعد زوجي أن يرسل خطابًا من باريس. لذا أنا واثقة أن هناك رسالة لي في البريد. ولكن هؤلاء الأغبياء يقولون إنه لا يوجد شيء. يا لهم من مهملين! هذه فضيحة!

ولم يدر أشندن ماذا يقول وسأل عن خطاباته. وسألت مسز كايبور الموظف عن موعد البريد فقيل لها إنه الخامسة بعد الظهر.

وفي اليوم التالي جاءت تعتذر إليه عن عدم استطاعتها تلقينه الدرس. وكان واضحًا أن جفونها لم تغمض طول الليل. وفي المساء وصلته مذكرة منها بأنها مضطرة لإيقاف الدروس.

ولاحظ في الوقت نفسه أنها انقطعت عن تناول طعامها في حجرة المائدة. وصارت تقضي اليوم كله في حجرتها، ولا تخرج إلا للذهاب إلى مكتب كوك.

وشعر أشندن بالأسف الشديد لها وهي تقضي الساعات تلو الساعات في قلق وفزع.

وأخيرًا أعطاه موظف كوك ذات صباح خطابًا من الكولونيل على هيئة رسالة من الرسائل التجارية العادية:

«سيدي العزيز. إن البضاعة التي أرسلتموها من لوسرن وصلت في موعدها المحدد، ونشكر لكم دقة تنفيذكم لتعليماتنا».

وأيقن أشندن أن كايبور لقي مصيره فسرت في جسده رعدة وهو يشتري من مكتب كوك تذكرة سفر إلى جنيف.

وفي هذه اللحظة دخلت مسز كايبور فهالته الحلقة السوداء حول عينيها وشحوب الموت الذي يعلو سحنتها. وترنحت في مشيتها إلى أن وقفت أمام الموظف وسألته عن بريدها. فهز الموظف رأسه سلبًا. فتوسلت إليه أن يعيد الفحص فامتثل إشفاقًا عليها.

وعندئذ حصل شيء رهيب، فقد ألقى فريتزي رأسه إلى الوراء ثم عوى عواء حادًّا متصلًا يمزق الأعصاب. فنظرت إليه مسز كايبور في فزع وقد برزت عيناها من محجريهما. وأصبح ما كانت تخشاه يقينًا مقطوعًا به لا سبيل إلى المماراة فيه...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الكتاب..

مؤلف الرواية

الفصل الأول الاسم السري
الفصل الثاني زيارة
الفصل الثالث الآنسة كنج
الفصل الرابع المكسيكي الأمرد
الفصل الخامس المرأة السمراء
الفصل السادس نتيجة غير متوقعة
الفصل السابع رحلة إلى باريس
الفصل الثامن چـــــــوليـــــــا
الفصل التاسع ثورة عارمة
الفصل العاشر الفريسة
الفصل الحادي عشر جوستاف
الفصل الثاني عشر الخائن
الفصل الثالث عشر دروس
الفصل الرابع عشر صداقة
الفصل الخامس عشر الفخ

الفهرس..